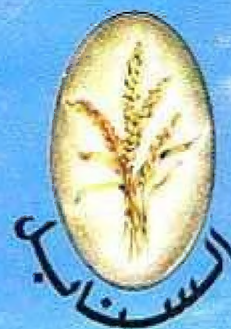
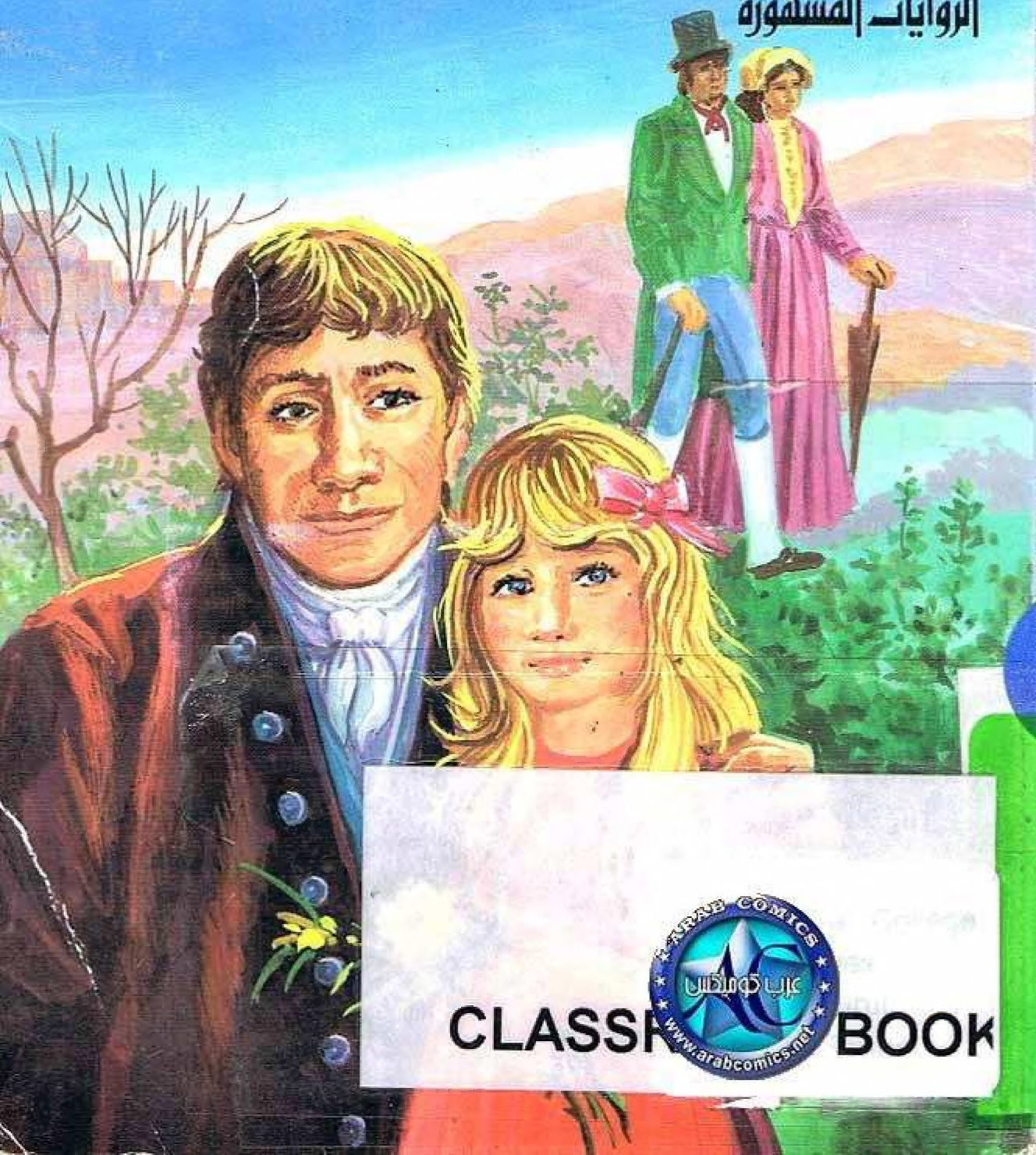


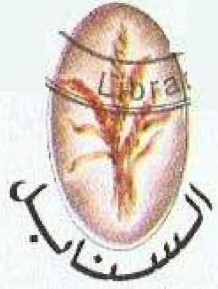
سَيِّدُ الْكَلْبِ وَالْمَاءِ



الروايات المشهورة



CLASSIC BOOK



سَيَّائِلَاتُ مَا زُنَتْ

الروايات المشهورة



تأليف : جورج إليوت

أعدّها بالعربية : شوقي رياض السنوسي

رسوم : محمد قطب

مَكْتَبَةُ لُبْنَان
بِيرُوت

رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ١٩٩٠

١٠ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة ، مصر

جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه
أو تسجيله بأي وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الأولى ١٩٩٠

رقم الإيداع : ٨٣٧٢ / ١٩٩٠

الترقيم الدولي : ٩٠ - ٠٠٠٧ - ١٦ - ٩٧٧ ISBN

طبع بمطابع دار العالم العربي

الفصل الأول

سايلاس مارنر في رافيلو

كان سايلاس مارنر رجلاً غريب الأطوار ، يعيش وحيداً في قرية رافيلو منذ خمس عشرة سنة . ولم يكن أهل القرية يعرفون شيئاً عن حياته ، وكانوا يستشعرون إزاءه شيئاً من الخوف . وكان يشتغل بنسج الكتان ، ويعيش في كوخ حجري على مقربة من القرية ، بجوار محجر قديم كان العمال يستخرجون منه أحجار البناء ، ولكنه أصبح في ذلك الوقت مهجوراً يغمره الماء .

كانت قرية رافيلو تقع في وادٍ خصيب وسط إنجلترا ، وفي منطقة نائية من هذا الوادي تحف بها الأشجار العالية من كل جانب . وكانت القرية تبعد عن أي طريق رئيسي يربط بينها وبين سائر البلدان بمسافة طويلة يقطعها المسافر على ظهر الحصان في غضون ساعة ؛ ولذا كانت شبه معزولة عما حولها ، لا يمر بها

المسافرون إلا نادراً ، ولا يرد إليها من الأخبار الخارجية إلا القليل .

وفي وسط تلك القرية كانت تقوم أربعة أو خمسة منازل ريفية يقطنها كبار مزارعي القرية .

قدم سايلاس مارنر إلى رافيلو للمرة الأولى منذ خمس عشرة سنة ، وكان يومئذ شاباً شاحب الوجه ذا عيني عسلتين حادثي النظر . وتطلع إليه أهل القرية آنذاك في ريبة وحذر ، فقد كان شخصاً غريباً عنهم قادمًا من الشمال ، وهو يجيد حرفة النسج التي لا يعرفون عنها شيئاً . ومن ثم عاش سايلاس منفرداً في ذلك المكان ، لا يتحدث إلى أهل القرية ولا يتحدثون إليه إلا عندما يريد أن يتتاع منهم شيئاً ، أو يبيع لهم الكتان الذي ينسجه على نوله .

ومما زاد خوفهم ، ونفورهم منه ، أنه كان يعاني داءً غريباً يؤدي به - في بعض الأحيان - إلى غيبوبة يتصلب خلالها جسمه ، ولا يدري شيئاً عما يدور حوله .

وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع أن يتعايش معهم ، ويكتسب منهم نقوداً كثيرة ، لأنه كان ناسجاً ماهراً مفيداً لهم ، تحرص على التعامل معه زوجاتهم ، لا سيما زوجات الأثرياء منهم .

وَلَعَلَّ السَّبَبَ فِي إِثَارِ سَائِلَاسٍ مَارَرِ الْوَحْدَةَ وَالْإِبْتِعَادَ عَنِ النَّاسِ ،
أَنَّهُ كَانَ يَطْوِي حَنَائِيَا صَدْرِهِ عَلَى سِرٍّ ، هُوَ شَدِيدُ الْحِرْصِ عَلَى
كِتْمَانِهِ ، فَقَدْ كَانَ يُقِيمُ فِي مَدِينَةٍ أُخْرَى كَبِيرَةٍ اسْمُهَا لَانْتِرَن يَارِدَ ،
قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ لِيَسْتَوْطِنَ بِلَدَةَ رَافِيلُو . وَكَانَ لَهُ فِيهَا أَصْدِقَاءُ كَثِيرُونَ
يَشْتَغِلُونَ مِثْلَهُ بِنَسْجِ الْكُتَّانِ . وَفِي تِلْكَ الْأَيَّامِ كَانَ سَائِلَاسٌ مَارَرِ
مُتَدِينًا يَلْتَزِمُ بِتَادِيَةِ فُرُوضِ دِينِهِ .

وَكَانَ أَحَبَّ أَصْدِقَائِهِ إِلَيْهِ وَلَيْمَ دِينَ ، الَّذِي كَانَ يَكْبُرُهُ فِي
الْعُمُرِ ، وَلَكِنَّهُ - يَبْدُو مِثْلَهُ - شَابٌّ طَيِّبٌ عَمِيقُ التَّدْبِيرِ ، بَلْ إِنْ
الْآخَرِينَ كَانُوا يَرَوْنَ فِيهِ قُدُورَةً وَأَسُوءَةً ، مَعَ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَغْتَفِرُ لِنَفْسِهِ
مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَا يَغْتَفِرُهُ لِلْآخَرِينَ ، وَيَنْدُدُ بِعُيُوبِ الْجَمِيعِ وَلَا يَرَى
عُيُوبَ نَفْسِهِ ، حَتَّى أَسَانِدَتُهُ وَمُعَلِّمُوهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونُوا عَلَى خَطَأٍ ،
أَمَّا هُوَ فَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْخَطَأُ أَبَدًا . هَكَذَا كَانَ وَلَيْمَ دِينَ نَمُودَجًا
لِلتَّشَدُّدِ وَالتَّزَمَّتِ فِي مُعَامَلَتِهِ لِرِفَاقِهِ ؛ إِذْ كَانَ يَظُنُّ نَفْسَهُ أَذْكَى
مِنْهُمْ عَقْلًا وَأَحْكَمَ بَصَرًا ، وَأَقْوَمَ طَرِيقًا . وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَكُنْ
سَائِلَاسٌ يَضِيقُ بِمُعَاشَرَةِ صَدِيقِهِ هَذَا ، بَلْ كَانَ يُحِبُّهُ حُبًّا جَمًّا ،
وَيَرَى فِيهِ مِثْلَهُ الْأَعْلَى الْمُبْرَأَ مِنَ الْعُيُوبِ .

كَانَ الصَّدِيقَانِ عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ ؛ وَلَيْمَ يَبْدُو واثِقًا بِنَفْسِهِ عَلِيمًا

بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَسَائِلَاسٌ يُسِيءُ الظَّنَّ بِنَفْسِهِ وَيَعْتَرِفُ بِمَا يَرْتَكِبُهُ مِنْ
أَخْطَاءٍ ، وَهُوَ لِهَذَا دَائِمُ الشُّعُورِ بِالْخَوْفِ . وَكَانَ هَذَا الْإِخْتِلَافُ
بَيْنَ أَعْمَاقِ الرَّجُلَيْنِ يَبْدُو وَاضِحًا عَلَى صَفَحَتَيْ وَجْهَيْهِمَا ؛ فَقَدْ
كَانَتْ عَيْنَا سَائِلَاسٍ تَلْمَعَانِ بِحُبِّ الْآخَرِينَ ، وَتَفْصَحُ نَظَرَاتُهُمَا عَمَّا
تَمْتَلِي بِهِ نَفْسُهُ مِنَ الْعَطْفِ عَلَيْهِمْ ، وَالْمُودَةِ لَهُمْ ، وَلَكِنَّهُمَا كَانَتَا
لَا تَلْحَظَانِ مِمَّا يَدُورُ حَوْلَهُ إِلَّا الْقَلِيلَ . أَمَّا وَلَيْمَ فَقَدْ كَانَ عَيْنَاهُ
ضَيِّقَتَيْنِ تَنْبَعِثُ مِنْهُمَا نَظَرَاتٌ مُلْتَوِيَةٌ غَامِضَةٌ ، وَكَانَ فَمُهُ مَزْمُومَ
الشَّفَتَيْنِ يَنْمُ عَنْ الْقَسْوَةِ وَالصَّرَامَةِ .

وَكَانَ سَائِلَاسٌ قَدْ خَطَبَ لِنَفْسِهِ آنَذَاكَ خَادِمَةً شَابَّةً تُدْعَى سَارَةَ ،
وَكَانَ يَتَطَلَّعُ إِلَى الزَّوْاجِ بِهَا . وَكَانَا يَدْخِرَانِ النُّقُودَ مَعًا لِإِتِمَامِ
زَوَاجِهِمَا الْمُرتَقَبِ . وَذَاتَ يَوْمٍ هَاجَمَتْ نَوْبَةُ الْمَرَضِ سَائِلَاسَ أَثْنَاءَ
قِيَامِهِ بِالصَّلَاةِ ، عِنْدَئِذٍ قَالَ صَدِيقُهُ وَلَيْمَ الَّذِي كَانَ مَعَهُ آنَذَاكَ :
« إِنَّ سَبَبَ تِلْكَ النَّوْبَاتِ هُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يَتَقَمَّصُ رُوحَ سَائِلَاسِ ! »

وَمَا إِنْ سَمِعَتْ سَارَةُ تِلْكَ الْعِبَارَةَ حَتَّى انْتَابَتْهَا خَشْيَةٌ مِنْ خَطِيبِهَا .
وَأَخَذَتْ مِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ تَفْقِدُ اهْتِمَامَهَا بِسَائِلَاسٍ ، وَإِنْ زَعَمَتْ أَنَّهَا
لَنْ تَرْفُضَ الزَّوْاجَ بِهِ . وَحَدَّثَتْ أَنَّ مَرَضَ أَحَدِ شُيُوخِ الْحَيِّ الَّذِي
يَعِيشُ فِيهِ ، وَكَانَ يَتَنَاقَبُ بِخِدْمَتِهِ أَهْلُ الْحَيِّ . وَفِي اللَّيْلَةِ الَّتِي تُوَفِّي



مِنْ أَجْلِكَ يَا عَزِيزِي سَايْلَاسَ .»

وَخَرَجَ سَايْلَاسُ الْمِسْكِينُ عَائِدًا إِلَى مَنْزِلِهِ ، بَعْدَ أَنْ اهْتَرَّ إِيمَانُهُ
بِالنَّاسِ اهْتِزَازًا عَنِيفًا ، يُشْقِي رُوحَهُ الْيَأْسُ ، وَيَعْصِفُ بِعَقْلِهِ مَا يُشْبِهُ
الْجُنُونِ . وَجَلَسَ فِي دَارِهِ وَحِيدًا يَنْتَظِرُ رِسَالَةً مِنْ سَارَةِ ، تُضَمِّدُ
جِرَاحَهُ ، وَتَمْسَحُ عَنْ رُوحِهِ مَا أَصَابَهَا مِنْ يَأْسٍ وَقُنُوطٍ . وَلَمْ تَلْبَثْ
أَنْ وَاتَتْهُ الرِّسَالَةُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي ، وَلَكِنْ بِغَيْرِ مَا كَانَ يَتَوَقَّعُ ، فَقَدْ
أَبَانَ سَارَةُ بِأَنَّهَا تَعْتَبِرُ خِطْبَتَهَا لَهُ مَفْسُوخَةً ، وَصَلَتْهَا بِهِ مَقْطُوعَةً .
وَلَمْ يَمُضْ شَهْرٌ وَاحِدٌ عَلَى ذَلِكَ الْحَدَثِ الْأَلِيمِ حَتَّى تَزَوَّجَتْ سَارَةُ



فِيهَا ذَلِكَ الشَّيْخُ ، كَانَ سَايْلَاسُ هُوَ الَّذِي يَسْهَرُ عَلَى خِدْمَتِهِ وَحْدَهُ .
وَقَدْ اكْتَشَفَ عَقِبَ وَفَاتِهِ أَنَّ الْحَقِيقَةَ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَى أَمْوَالِهِ قَدْ
سُرِقَتْ مِنْ دُرْجِهِ ، وَأَنَّ مَدِيَّةَ سَايْلَاسَ قَدْ تُرِكَتْ فِي ذَلِكَ الدُّرْجِ .
وَعَرَفَ سَايْلَاسُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّ صَدِيقَهُ وَلِيمَ دِينَ هُوَ الَّذِي سَرَقَ مَدِيَّتَهُ
مِنْهُ ، وَهُوَ فَاقِدُ الْوَعْيِ ، أَثْنَاءَ إِحْدَى نَوَابِتِ الْمَرَضِ ؛ وَاسْتَعْمَلَهَا فِي
السُّطُو عَلَى النُّقُودِ ، يَبْدُ أَنْ أَهْلَ الْحَيِّ لَمْ يُصَدِّقُوا سَايْلَاسَ ،
وَأَصْدَرُوا حُكْمًا بِإِدَانَتِهِ وَطَرَدَهُ مِنَ الْحَيِّ . عِنْدَئِذٍ قَالَ لَهُ وَلِيمُ دِينَ
فِي تَخَابُثٍ وَلَوْمْ : « لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ لَكَ شَيْئًا سِوَى أَنْ أَصَلِّيَ

وليم دين .

وهكذا رحل سايلاس عن المدينة مهاجراً إلى قرية رافيلو ،
يعتصره الحزن والألم !

الفصل الثاني

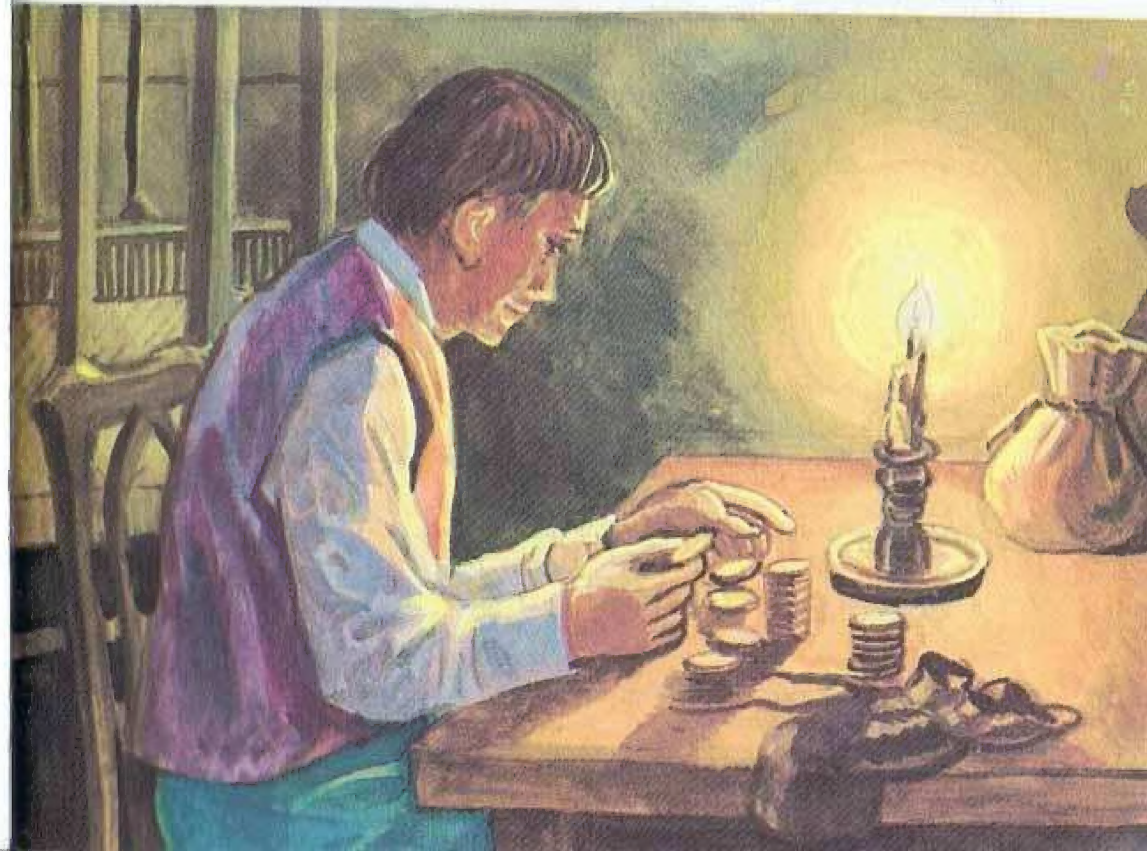
سايلاس يعمل في قرية رافيلو

كانت قرية رافيلو تختلف كثيراً عن المدينة التي ولد فيها
سايلاس ، حتى الحقول والمزارع حول رافيلو كانت تختلف عن
تلك التي تحيط بمدينته . ولم يكن أحد في هذه القرية يعرف شيئاً
عمماً جرى لسايلاس في مدينته التي هاجر منها ، كما لم يكن له
أصدقاء في تلك القرية . وكانت تسليته الوحيدة هي النسيج ، وكان
هذا العمل - بالإضافة إلى طهي الطعام وتنظيف الكوخ وتربيته -
يستغرق كل يومه . وكان إنتاجه من نسيج الكتان يدر عليه مبالغ
لا بأس بها من النقود الذهبية والفضية . ولقد أخذ يهيم بتلك
النقود البراقة ويعشقها عشقاً بالغاً ؛ فما إن ينتهي من العمل كل
يوم حتى يغلق باب الكوخ ونوافذه بإحكام ، ويخرج الأكياس
الجلدية السميكّة التي يضع فيها نقوده ، من مخبئها السري في

يَلْبَثُ أَنْ نَحْلَ جَسَدَهُ وَشَحَبَ وَجْهَهُ وَأَنْحَنَتْ قَامَتُهُ ، فَأَخَذَ الْأَطْفَالُ
يَسْخَرُونَ مِنْهُ وَيَدْعُونَهُ الْعَجُوزَ سَايْلَاسَ مَارْنَر ، مَعَ أَنَّ عُمُرَهُ حِينَئِذٍ
كَانَ دُونَ الْأَرْبَعِينَ عَامًا . وَفِي هَذَا الْعَامِ الْخَامِسِ عَشَرَ مِنْ إِقَامَتِهِ
فِي رَاقِيلُو ، وَعِنْدَ حُلُولِ الْعِيدِ الصَّغِيرِ ، وَقَعَ لَهُ حَادِثٌ جَلَلٌ .

تِلْكَ الْحُفْرَةُ الَّتِي يَعْلُوهَا قَالِبٌ مُمَيَّزٌ تَحْتَ أَرْضِ الْغُرْفَةِ حَيْثُ يَضَعُ
فِيهَا النُّوْلَ . عِنْدَئِذٍ كَانَ يَتَنَاوَلُ النُّقُودَ الدَّهَبِيَّةَ وَالْفِضِيَّةَ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي
شَغَفٍ وَوَلَهٍ شَدِيدَيْنِ ، وَيَقْلِبُهَا بِأَصَابِعِهِ الْمُرْتَعِشَةِ فِي لَذَّةٍ وَسُرُورٍ
بَالِغَيْنِ ، ثُمَّ يَعُدُّهَا وَيُعِيدُهَا فِي حِرْصٍ وَعِنَايَةٍ إِلَى مَخْبِئِهَا تَحْتَ
الْأَرْضِ .

هَكَذَا ظَلَّ سَايْلَاسَ مَارْنَرُ يَعِيشُ فِي وَحْدَةٍ وَعَزْلَةٍ لِمُدَّةٍ خَمْسَةِ
عَشَرَ عَامًا فِي تِلْكَ الْقَرْيَةِ النَّائِيَةِ ، لَا يَخْتَلِطُ بِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِهَا ،
وَلَا يَخْتَلِطُ بِهِ أَحَدٌ . كَانَ النَّسْجُ هُوَ لِدَّتَهُ الْوَحِيدَةُ وَشُغْلُهُ الشَّاعِلُ
فِي الْحَيَاةِ ، يَقْضِي فِيهِ سَحَابَةَ نَهَارِهِ ، وَشَطْرًا مِنْ لَيْلِهِ ؛



الفصل الثالث

ولدا كاس

كَانَ الشَّرِيفُ كَاسٌ أَغْنَى وَأَشْهَرَ الرُّجَالِ فِي رَاقِيلُو ؛ فَهُوَ الَّذِي يَمْتَلِكُ أَكْبَرَ مِسَاحَةٍ مِنَ الْأَرْضِ فِي زَمَامِ الْقَرْيَةِ . وَيَعِيشُ فِي مَنْزِلٍ ضَخْمٍ ذِي طِلَافٍ أَحْمَرَ ، مَعَ وَلَدَيْهِ غُودْفَرِي وَ دَانِسْتَان بَعْدَ مَوْتِ زَوْجَتِهِ . كَانَ غُودْفَرِي ، وَهُوَ أَكْبَرُ الْوَلَدَيْنِ ، شَابًّا وَسِيمًا طَيِّبَ الْقَلْبِ ، وَكَانَ جَمِيعُ أَهْلِ الْقَرْيَةِ يُرْجِحُونَ زَوَاجَهُ بِالْأَنِسَةِ نَانْسِي لَامِيتِر ، الَّتِي كَانَتْ تَصْلُحُ بِحَقٍّ لِأَنْ تَكُونَ سَيِّدَةَ الْمُسْتَقْبَلِ فِي الْمَنْزِلِ الْأَحْمَرَ الْكَبِيرِ ؛ لِمَا تَمَيَّزَتْ بِهِ مِنْ رَقَّةٍ وَذَكَاءٍ وَدَمَائَةٍ . أَمَّا دَانِسْتَان ، الَّذِي كَانُوا يَدْعُونَهُ دَنْسِي فِي الْعَادَةِ ، فَهُوَ عَلَى النَّقِيضِ مِنْ أَخِيهِ ؛ إِذْ كَانَ ذَا قَلْبٍ حَقُودٍ أَسْوَدَ ، وَلِسَانٍ حَادٍّ لَا يَكْفُ عَنْ التَّهْجُمِ عَلَى النَّاسِ ، وَلَا يَتَوَرَّعُ عَنِ الْكَذِبِ ؛ كَمَا كَانَ مُوْلَعًا بِالشَّرْبِ وَلَعِبِ الْقِمَارِ .

وَذَاتَ مَسَاءٍ مِنْ شَهْرِ نُوفَمْبِرِ ، كَانَ غُودْفَرِي كَاسٌ يَقِفُ فِي إِحْدَى حُجَرَاتِ الْبَيْتِ الْأَحْمَرِ ، يَنْتَظِرُ وَصُولَ أَخِيهِ دَانِسْتَانِ ، وَقَدْ بَدَتْ عَلَى وَجْهِهِ أَمَارَاتُ الْحَيْرَةِ وَدَلَائِلُ التَّعَاسَةِ . وَمَا إِنْ دَلَفَ دَنْسِي إِلَى الْحُجْرَةِ وَهُوَ ثَمِلٌ حَتَّى صَاحَ غُودْفَرِي فِي وَجْهِهِ قَائِلًا : « أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ أَسْلَمَ إِجَارَ مَزْرَعَةٍ فَوَلَّرَ إِلَى وَالِدِي فِي الْحَالِ ، وَأَلَا أَخْبِرُهُ بِأَنَّنِي قَدْ أُعْطِيتُكَ تِلْكَ النُّقُودَ . إِنَّهُ عَصَبِي الْمِرَاجِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بِسَبَبِ حَاجَتِهِ إِلَى نُقُودٍ ، وَلَا شَكَّ أَنَّكَ تَذَكَّرُ مَا سَبَقَ أَنْ هَدَدَكَ بِهِ إِذَا اكْتَشَفَ أَنَّكَ عُدْتَ لِسَرْقَةِ نُقُودِهِ . لِذَا يَجِبُ أَنْ تُعِيدَ هَذَا الْمُبْلَغَ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ ، هَلْ تَسْمَعُنِي ؟ »

أَجَابَهُ دَنْسِي : « آه يَا أَخِي الْعَزِيزَ ، إِنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُدَبِّرَ هَذَا الْمُبْلَغَ بِطَرِيقَةٍ مَا ، وَتُنْقِذَنِي مِنْ هَذَا الْمَازِقِ . لَقَدْ أُعْطِيتَنِي هَذِهِ النُّقُودَ بِنَفْسِكَ ، وَلَسَوْفَ تَسْتَطِيعُ دُونَ شَكٍّ أَنْ تَرُدَّهَا لِي وَالِدِي فِي نِهَائَةِ الْأَمْرِ . وَلَا تَنْسَ يَا عَزِيزِي غُودْفَرِي أَنَّنِي أَسْتَطِيعُ فِي أَيِّ وَقْتٍ أَنْ أَجْعَلَ أَبَانَا يَطْرُدُكَ مِنْ هَذَا الْمَنْزِلِ شَرَّ طَرْدَةٍ ، إِذَا مَا أَخْبَرْتَهُ بِزَوَاجِكَ السَّرِيِّ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ الشَّرِيرَةِ السَّكِيرَةِ الَّتِي تُدْعَى مُوْلِي فَارِنَ ؛ حِينَمَا سَوْفَ أُحْتَلُّ أَنَا مَكَانَكَ فِي هَذَا الْبَيْتِ وَأَصْبَحَ الْإِبْنُ الْمُدْلَلُ فِيهِ . فَمِنْ الْأَفْضَلِ لَكَ أَنْ تُؤَدِّيَ عَنِّي مَبْلَغَ مِئَةِ الْجُنْيَةِ الَّتِي يُطَالِبُ بِهَا أَبُونَا . إِنَّنِي مُوقِنٌ مِنْ أَنَّكَ سَوْفَ تَفْعَلُ ذَلِكَ . »

« وَلَكِنْ كَيْفَ اسْتَطِيعَ تَدْبِيرَ مِثْلِ هَذَا الْمُبْلَغِ ، وَلَيْسَ فِي جَيْبِي
شِلْنٌ وَاحِدٌ ؟! »

أَجَابَ دَانِسْتَانُ : « ارْكَبْ جَوَادَكَ ، وَاذْهَبْ عَلَى الْفَوْرِ إِلَى
السَّيِّدِ بَرَايسَ وَبِعْهُ لَهُ ؛ إِنَّهُ مُعْجَبٌ بِهِ ، كَمَا تَعْرِفُ ، أَشَدَّ الْإِعْجَابِ ،
وَيَتِمَنَّى شِرَاءَهُ مِنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ . »

« وَلَكِنِّي سَوْفَ أَتَأَخَّرُ فِي الْعُودَةِ إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَخَاصَّةً أَنَّنِي
مُرْتَبِطٌ بِالذَّهَابِ إِلَى حَفَلَةِ رَقْصٍ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ، كَمَا تَعْلَمُ . »

قَالَ دَنْسِي : « إِنَّكَ تَتَطَلَّعُ إِلَى مُرَاقَصَةِ الْآنِسَةِ نَانْسِي هَذَا الْمَسَاءِ
عَسَى أَنْ تَنَالَ إِعْجَابَهَا وَرِضَاهَا . لَا شَكَّ أَنَّكَ تُؤْمَلُ فِي أَنْ تَمُوتَ
مَوْلَى الْمِسْكِينَةِ قَرِيبًا مِنْ جَرَاءِ مَا تَتَعَاطَاهُ مِنْ خَمَرٍ وَمُخَدَّرَاتٍ ، فَتَفُوزَ
بِالزَّوْاجِ بِالْآنِسَةِ نَانْسِي الَّتِي تَجْهَلُ الْآنَ تَمَامًا أَنَّكَ مُتَزَوِّجٌ بِوَاحِدَةٍ
سِوَاهَا ! »

صَاحَ غُودْفَرِي غَاضِبًا : « لَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي بِجُحُودِكَ
وَتَطَاوُلِكَ ، وَأَرَى أَنَّهُ لَا مَنَاصَ لِي مِنَ الْاعْتِرَافِ لِوَالِدِي بِزَوَاجِي ،
وَطَلَبِ الصَّفْحِ مِنْهُ لِأَتَخَلَّصَ مِنْ تَهْدِيدِكَ الْمُسْتَمِرِّ لِي ، سِيمَا وَأَنَّ
مَوْلَى تَهْدِدُنِي أَيْضًا بِإِفْشَاءِ السِّرِّ . لَقَدْ اسْتَلَبْتُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ كُلَّ
نُقُودِي يَا دَنْسِي ، وَلَمْ تَتْرِكْ لِي شَيْئًا أَشْتَرِي صَمْتَهَا بِهِ ! »

وَتَسَاقَطَتِ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْ غُودْفَرِي . إِنَّهُ يَخْشَى غَضَبَ أَبِيهِ ،
وَحَرْمَانَهُ مِنَ الْمِيرَاثِ ، وَيَخْشَى أَلَّا يَتِمَكَّنَ مِنَ الزَّوْاجِ بِنَانْسِي يَوْمًا مَا ،
وَهُوَ مَا لَا يَسْتَطِيعُ غُودْفَرِي الْمِسْكِينُ أَنْ يَتَحَمَّلَهُ ؛ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ
عَزَمَ عَلَى الرُّضُوحِ لِرَغْبَةِ أَخِيهِ ، وَالذَّهَابِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي إِلَى
السَّيِّدِ بَرَايسَ لِبَيْعِ الْجَوَادِ .

وَتَطَلَّعَ غُودْفَرِي إِلَى أَخِيهِ فِي حُزْنٍ وَمَرَارَةٍ قَائِلًا : « مَتَى سَتَكْفُفُ
عَنْ أَفْعَالِكَ الشَّائِنَةِ الَّتِي تُسَبِّبُ لِي الْمَتَاعِبَ دَائِمًا يَا دَنْسِي ؟ سَوْفَ
أَنْطَلِقُ غَدًا لِبَيْعِ جَوَادِي الْمَحْبُوبِ ، أَتَمَنَّ شَيْءٌ أُمْتَلِكُهُ الْآنَ فِي
الْوُجُودِ ! »

قَالَ دَنْسِي : « حَسَنٌ ، مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ أُبِيعَ لَكَ هَذَا الْفَرَسَ
الْأَصِيلَ غَدًا بِنَفْسِي ؛ فَأَنَا أَمْهَرُ مِنْكَ فِي الْمَسَاوِمَةِ . »

« هَلْ تَتَعَهَّدُ بِأَنْ تُسَلِّمَنِي الثَّمَنَ بِأَمَانَةٍ ؟ »

أَجَابَ دَنْسِي : « أَجَلُ بِالتَّأَكِيدِ ، وَلَسَوْفَ أَحْصِلُ لَكَ عَلَى مِئَةِ
وَعِشْرِينَ جُنْيَهًا ثَمَنًا لَهُ ، لَا مِئَةَ جُنْيَةٍ فَقَطْ . »

وَأَغْلَقَ دَنْسِي الْبَابَ وَرَاءَهُ بِصَوْتٍ عَالٍ ، تَارِكًا أَخَاهُ الْأَكْبَرَ الَّذِي
بَلَغَ السَّادِسَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْعُمُرِ لِأَفْكَارِهِ الْحَزِينَةِ الْقَاتِمَةِ . يَبْدُو أَنَّ

غودفري كَانَ مَلُومًا كَذَلِكَ فِيمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ حَالُهُ مِنَ التَّعَاسَةِ
وَالشَّقَاءِ ؛ فَلَقَدْ أَقْدَمَ عَلَى الزَّوْاجِ سِرًّا بِامْرَأَةٍ سَيِّئَةِ السُّمْعَةِ بِسَبَبِ
ضَعْفِ أَخْلَاقِهِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ طَيِّبَةِ قَلْبِهِ الشَّدِيدَةِ . وَكَانَ يُحِبُّ
نَانْسِي لَامِيَتِرَ ، وَيَحْلُمُ بِالسَّعَادَةِ الَّتِي سَوْفَ تُهَيِّئُهَا لَهُ هَذِهِ الْفَتَاةُ
الْجَمِيلَةُ الرَّائِعَةُ ، إِذَا مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا . غَيْرَ أَنَّ سَقَطَتَهُ
الطَّائِشَةَ بِالزَّوْاجِ بِمَوْلِي فَارِنَ كَانَتْ تَقِفُ حَائِلًا مَنِيعًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ
تِلْكَ السَّعَادَةِ ! وَكَانَ احْتِمَالُ أَنْ يَعْرِفَ وَالِدَةُ خَبَرَ زَوَاجِهِ الْفَاشِلِ
يَزِيدُ مَوْقِفَهُ حَرَجًا وَسُوءًا . وَكَانَ مُهَدِّدًا بِفَضِيحَةٍ لَا يُمَكِّنُ بَعْدَهَا أَنْ
يَرَى نَانْسِي مَرَّةً أُخْرَى .

الفصل الرابع

دانستان والجواد

انْطَلَقَ دَانِسْتَانُ بِالْجَوَادِ مُبَكَّرًا فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ لِيَبِيعَهُ
لِلسَّيِّدِ بَرَايسَ . وَمَرَّ فِي طَرِيقِهِ بِكُوْخِ سَايْلَاسَ مَارْنَرِ الَّذِي كَانَ يَبْدُو
كَثِييًّا مُوَحِّشًا ، يَزِيدُ فِي كَاتِبَتِهِ وَوَحْشَتِهِ ذَلِكَ الْمُحَجَّرُ الْقَدِيمُ الَّذِي
يُجَاوِرُهُ ، بِمَا يَعْلُوهُ مِنْ مَاءِ الْفَيْضَانِ الْمُوَحِّلِ الَّذِي يَضْرِبُ لَوْنَهُ إِلَى
الْحُمْرَةِ . وَسَمِعَ دَانِسْتَانُ الضُّوْضَاءَ الَّتِي تَصْدُرُّ عَنْ نَوْلِ سَايْلَاسَ ،
وَوَخَّطَرَ لَهُ أَنَّ نَقُودَ الرَّجُلِ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُخَبَّأَةً فِي مَكَانٍ قَرِيبٍ ،
فَلَقَدْ سَمِعَ الْكَثِيرَ مِنْ قَبْلُ عَمَّا يَكْتَسِبُهُ سَايْلَاسَ مَارْنَرِ مِنْ مَالٍ ، وَعَنْ
حِرْصِهِ الشَّدِيدِ عَلَيْهِ . وَهَمَّ بِأَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَخِيهِ غُودْفَرِي فَيَطْلُبَ إِلَيْهِ
أَنْ يَقْتَرِضَ نَقُودًا مِنْ سَايْلَاسَ بَدَلًا مِنْ بَيْعِ الْجَوَادِ ، غَيْرَ أَنَّهُ أَثَرُ تَأْجِيلِ
ذَلِكَ الْأَمْرِ إِلَى حِينٍ .

وَقَابَلَ دَنْسِي السَّيِّدَ بَرَايسَ ، وَبَعْدَ مُسَاوَمَةٍ طَوِيلَةٍ بَاعَ لَهُ الْجَوَادَ



الَّذِي زَعَمَ أَنَّهُ مَلِكٌ خَاصٌّ بِهِ ، بِمَبْلَغِ مِئَةِ وَعِشْرِينَ جَنْيَهَا ، وَاتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَدْفَعَ بَرَأْسَ الثَّمَنِ فَوْرَ تَسْلِيمِ الْجَوَادِ سَلِيمًا فِي إِسْطَبْلِهِ الْخَاصِّ . وَسَرَّ دَانِسْتَانُ كَثِيرًا بِهَذَا الْإِنْفَاقِ ، وَاشْتَعَلَ نَشْوَةَ وَحَمَاسَةً ، فَرَادَ مِنْ سُرْعَةِ الْجَوَادِ فِي الْعَدُوِّ ، لِيَصِلَ بِهِ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ إِلَى إِسْطَبْلِ السَّيِّدِ بَرَأْسَ ؛ لَكِنَّ الْجَوَادَ لَمْ يَلْبِثْ أَنْ جَرَحَ جَرْحًا بِالْغَا وَهُوَ يَتَخَطَّى فِي عَدُوِّهِ أَحَدَ الْحَوَاجِزِ ، فَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ مَاتَ . وَمِنْ سَوْءِ الْحَظِّ لَمْ يُشَاهِدْ هَذَا الْحَادِثَ أَحَدٌ ، أَمَّا دَانِسْتَانُ فَقَدْ سَارَ بِأَسْرَعٍ مَا يَسْتَطِيعُ فِي اتِّجَاهِ رَاقِلُو .

بَدَأَ الظَّلَامُ يَهِيْطُ وَيَسْدِلُ أَسْتَارَهُ الْكَثِيفَةَ فَوْقَ الْأَرْضِ ، وَأَخَذَ الْمَطَرُ يَتَسَاقَطُ رَذَاذَا مُتَتَابِعًا مِمَّا أَحَالَ الْجَوُّ إِلَى عَتَمَةٍ شَدِيدَةٍ ، اسْتَطَاعَ خِلَالَهَا دَانِسْتَانُ أَنْ يَتَحَسَّسَ طَرِيقَهُ بِصُعُوبَةٍ بِالْغَةِ ، مُسْتَعِينًا بِسَوِّطِ الرُّكُوبِ الْجَمِيلِ ذِي الْمِقْبَضِ الذَّهَبِيِّ ، الَّذِي كَانَ قَدْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ إِذْنٍ صَاحِبِهِ غُودْفَرِي . وَمَا إِنَّ رَأَى ضَوْءًا يَسْطَعُ فِي الظَّلَامِ ، حَتَّى أَدْرَكَ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ آتِيًا مِنْ كُوخِ سَايْلَاسِ مَارْنَرِ ، الَّذِي كَانَ دَنَسِي يُفَكِّرُ فِي أُمُوَالِهِ طَوَالَ الْوَقْتِ أَثْنَاءَ سَيْرِهِ . وَحِينَئِذٍ عَزَمَ عَلَى التَّوَقُّفِ عِنْدَ الْكُوخِ مُتَعَلِّلًا بِاقْتِرَاضِ مِصْبَاحٍ يُعِينُهُ عَلَى مُوَاصَلَةِ السَّيْرِ فِي الظَّلَامِ . وَقَرَعَ دَنَسِي بَابَ سَايْلَاسِ بِشِدَّةٍ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَتَلَقَّ جَوَابًا . وَبَعْدَ أَنْ تَرَدَّدَ بُرْهَةً قَصِيرَةً دَفَعَ الْبَابَ الَّذِي لَمْ

يَكُنْ مُغْلَقًا بِمِزْلَاجٍ ، وَدَلَفَ إِلَى دَاخِلِ الْكُوخِ حَيْثُ وَجَدَ نَارًا
مُشْتَعِلَةً ، وَوَجَدَ عِشَاءَ سَائِلَاسٍ يُطْهَى فَوْقَهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ أَثَرًا
لِسَائِلَاسٍ ذَاتِهِ .

جَلَسَ دَانِسْتَانُ أَمَامَ النَّارِ ، وَأَخَذَ يَفْكُرُ : « تُرَى أَيْنَ يَكُونُ
النَّسَاجُ ؟ هَلْ خَرَجَ لِقَضَاءِ حَاجَةٍ فَوَقَعَ فِي الْحُفْرَةِ الْعَمِيقَةِ
الْمُجَاوِرَةِ ؟ وَإِذَا كَانَ قَدْ مَاتَ فَمَنْ سَيَأْخُذُ نُقُودَهُ مِنْ بَعْدِهِ ؟ وَأَيْنَ
تُوجَدُ هَذِهِ النُّقُودُ ؟ »

وَتَلَفَّتْ دَانِسْتَانُ حَوْلَهُ فَاسْتَرْعَى نَظْرَهُ أَنَّ الْقَوَالِبَ الَّتِي تَحْتَ
النُّوْلِ قَدْ غُطِّيتْ بِالرَّمَالِ بِعِنَايَةٍ شَدِيدَةٍ . وَسَرَّعَانَ مَارَكَعَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ
وَرَفَعَ اثْنَيْنِ مِنْ تِلْكَ الْقَوَالِبِ وَنَظَرَ ؛ فَإِذَا حُفْرَةٌ كَبِيرَةٌ تَبْدُو تَحْتَ
ذَيْنِكَ الْقَالِبَيْنِ ، وَتَسْتَفِرُّ فِي دَاخِلِهَا حَقِيبَتَانِ جَلْدَتَانِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ
تَحْتَوِيَا عَلَى شَيْءٍ غَيْرِ النُّقُودِ . وَذَهَلِ الشَّابُّ الصَّغِيرُ الْمُسْتَهْتَرُ بَادِيَّ
الْأَمْرِ ، ثُمَّ اعْتَرَاهُ انْفِعَالٌ شَدِيدٌ لِمَرَأَى تِلْكَ الثَّرْوَةَ الطَّائِلَةَ . وَسَرَّعَانَ
مَا جَذَبَ الْحَقِيبَتَيْنِ إِلَى الْخَارِجِ ، ثُمَّ أَخَذَ يَتَحَسَّسُ بِيَدَيْهِ جَوَانِبَ
الْحُفْرَةِ وَقَاعَهَا عَسَى أَنْ يَجِدَ شَيْئًا آخَرَ .

وَلَمَّا لَمْ يَعَثْرِ عَلَى الْمَزِيدِ ، حَمَلَ الْحَقِيبَتَيْنِ الْمَلِئَتَيْنِ وَخَرَجَ
وَأَغْلَقَ وَرَاءَهُ بَابَ الْكُوخِ بِعِنَايَةٍ شَدِيدَةٍ ؛ حَتَّى لَا يَتَسَرَّبَ مِنْهُ نُورٌ إِلَى

الْخَارِجِ فَيَكْشِفُهُ أَحَدُ الْمَارَّةِ . وَمَا إِنَّ رَأَى الْفَتَى الشَّقِيَّ نَفْسَهُ آمِنًا
فِي ظِلَامِ الطَّرِيقِ الْحَالِكِ ، حَتَّى انْطَلَقَ عَائِدًا إِلَى مَنْزِلِهِ تَحْتَ الْمَطَرِ
الْغَزِيرِ ، وَقَلْبُهُ يَكَادُ يَقْفِزُ مِنَ الْفَرَحَةِ . وَأَخَذَتِ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ، فَلَمْ
يُورِقْهُ نَدَمٌ عَلَى مَا ارْتَكَبَ مِنْ وِزْرِ جَسِيمٍ !

النَّارَ ؛ كَانَ عَشَاءٌ جَيِّدًا شَهِيًّا يَتَكَوَّنُ مِنْ قِطْعَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ اللَّحْمِ
أَهْدَتْهَا إِلَيْهِ فِي الصَّبَاحِ سَيِّدَةٌ طَيِّبَةُ الْقَلْبِ مِنْ رَبَّاتِ الْبُيُوتِ اللَّائِي
كَانَ يَنْسُجُ لَهُنَّ قُمَاشًا جَيِّدَ الصَّنْعِ .

وَتَقَدَّمَ إِلَى الْكُوخِ مُفَعِّمَ الْقَلْبِ بِالرِّضَا وَالسُّرُورِ ، لَمْ يَسْتَطِعْ
بَادِي الْأَمْرِ أَنْ يَرَى بَعَيْنَيْهِ شَيْئًا مُخْتَلِفًا فِي الدَّخْلِ . وَجَلَسَ قُرْبَ
النَّارِ التِّمَاسًا لِلدَّفْعِ ، وَمَدَّ الْبَصَرَ إِلَى طَعَامِهِ . وَلَوْ أُتِيحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ
إِلَيْهِ حِينَئِذٍ عَلَى ضَوْءِ النَّارِ الْمُشْتَعِلَةِ ، لَأَدْرَكْتَ لِمَاذَا كَانَ أَهْلُ
الْقَرْيَةِ يَتَطَلَّعُونَ إِلَيْهِ بِمَزِيجٍ مِنَ الشَّفَقَةِ وَالرَّيْبَةِ ؛ كَانَ وَجْهُهُ شَاحِبًا ،
وَعَيْنَاهُ مُجْهِدَتَيْنِ تُرْسِلَانِ نَظْرَاتٍ مُتَوَجِّسَةً غَرِيبَةً ، كَمَا كَانَ جَسَدُهُ
نَحِيلًا مُقَوَّسًا ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ - فِي الْوَاقِعِ - إِنْسَانًا طَيِّبًا يَفْضُلُ
الْكَثِيرِينَ مِنَ النَّاسِ ، كَانَ وَدِيعًا هَادِيًا يَمُقَّتُ الْأَذَى . أَجَلُ ، كَانَ
بَخِيلًا يَعْجَدُ الذَّهَبَ وَلَا يُحِبُّ الْإِنْفَاقَ ، غَيْرَ أَنَّ حِرْصَهُ الشَّدِيدَ عَلَى
الْمَالِ كَانَ يَعُودُ إِلَى ضَعْفِ إِيْمَانِهِ ، وَفَقْدَانِهِ الثِّقَةَ بِمَنْ حَوْلَهُ مِنَ
الْبَشَرِ ، بَعْدَ أَنْ تَحَطَّمَ حُبُّهُ ، وَأَذِلَّتْ كِبْرِيَائُوهُ ، وَعَدَرَ بِهِ أَقْرَبُ النَّاسِ
إِلَيْهِ .

وَلَمْ يَكَدْ سَايِلَاسُ يَشْعُرُ بِالْدَّفْعِ ، حَتَّى عَاوَدَهُ الْحَنِينُ لِرُؤْيَا
نَقْوَدِهِ . وَلَمْ يَسْتَطِعْ تَأْجِيلَ ذَلِكَ الْأَمْرِ إِلَى مَا بَعْدَ الْعَشَاءِ ؛ فَقَدْ
كَانَ يَتَلَهَّفُ إِلَى نَثْرِ الْقِطْعِ الذَّهَبِيَّةِ وَالْفِضِيَّةِ أَمَامَهُ عَلَى الْمِنْضَدَةِ ،

الفصل الخامس الكنز الضائع

عِنْدَمَا وَلَّى دَانِسْتَانُ الْأَدْبَارَ ، لَمْ يَكُنْ سَايِلَاسُ مَارْنَرُ يَبْعُدُ عَنْ
كُوخِهِ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِينَ مِثْرًا ، وَكَانَ عَائِدًا حِينَئِذٍ مِنَ الْقَرْيَةِ ، يَحْمِلُ
مِصْبَاحًا يَكْشِفُ لَهُ الطَّرِيقَ فِي الظُّلَامِ الدَّامِسِ . كَانَتْ قَدَمَاهُ
مُتَعَبَتَيْنِ ، وَلَكِنَّ ذَهَنَهُ كَانَ يَنْعَمُ بِالسَّلَامِ وَالْإِطْمِئْنَانِ ، عَلَى الرَّغْمِ
مِنْ تَرَكِهِ مَنْزِلَهُ وَكَنْزَهُ دُونَ حِرَاسَةٍ . وَكَانَ سَايِلَاسُ قَدْ ذَهَبَ إِلَى
الْقَرْيَةِ لِيَحْضِرَ بَضْعَةً أَشْيَاءَ لَازِمَةً لِلنَّوْلِ ، كَيْ يَسْتَأْنِفَ عَمَلَهُ الْمُعْتَادَ
فِي الْيَوْمِ التَّالِي . وَلَمْ يَكُنْ يَخْشَى دُخُولَ أَحَدٍ إِلَى كُوخِهِ فِي
غَيْبَتِهِ ، فَذَلِكَ مَا لَمْ يَحْدُثْ قَطُّ طَوَالَ السَّنَوَاتِ الْخَمْسِ عَشْرَةَ
الْمَاضِيَةِ الَّتِي عَاشَهَا فِي رَافِيلُو ، فَلِمَاذَا يَتَوَقَّعُ حُدُوثَهُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ
الْمُطْرَةِ الْمُظْلِمَةِ ؟

وَأَخَذَ سَايِلَاسُ يُفَكِّرُ فِي عَشَائِهِ الَّذِي كَانَ قَدْ تَرَكَهُ لِيَنْضَجَ فَوْقَ

وَالْتَلَدُّ بِمَرَّآهَا أَثْنَاءَ تَنَاوُلِهِ الطَّعَامَ .

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَهَضَ وَاقِفًا ، وَوَضَعَ مِصْبَاحَهُ عَلَى الْأَرْضِ قَرِيبًا مِنَ النَّوْلِ ، وَرَكَعَ لِيُزِيحَ الرَّمَالَ بَعِيدًا ، ثُمَّ رَفَعَ الْقَوَالِبَ الَّتِي كَانَتْ تَغْطِي الْحَقِيتَيْنِ الْجِلْدِيَّتَيْنِ . وَمَا إِنْ أَبْصَرَ الْحُفْرَةَ خَالِيَةً حَتَّى بُهَتَ وَاجْتَا حَهُ رُغْبٌ عَظِيمٌ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَخَيَّلَ أَنْ نُقُودَهُ سُرِقَتْ ، وَذَهَبَتْ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ ! وَدَفَعَ بِالمِصْبَاحِ إِلَى دَاخِلِ الْحُفْرَةِ ، وَجَالَ بِهِ فِي جَمِيعِ أَرْكَانِهَا ، عَلَى حِينِ كَانَ جَسَدُهُ كُلُّهُ يَرْتَعِشُ ، إِلَى أَنْ سَقَطَ المِصْبَاحُ أَخِيرًا مِنْ يَدِهِ ، وَاعْتَمَدَ المِسْكِينُ رَأْسَهُ بَيْنَ كَفَيْهِ ، وَأَخَذَ يَتَذَكَّرُ مَا فَعَلَهُ فِي اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ ، فَلَعَلَّهُ يَكُونُ قَدْ أَخْفَى الْحَقِيتَيْنِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ . وَسَرَّعَانَ مَا قَفَزَ مِنْ مَكَانِهِ وَأَخَذَ يُفْتَشُ الكُؤُخَ شِبْرًا شِبْرًا ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ اسْتَسْلَمَ لِلْحَقِيقَةِ القَاسِيَةِ المَرْوَعَةِ : وَهِيَ أَنَّ كَثْرَةَ الثَّمِينِ قَدْ فُقِدَ !

عِنْدَيْهِ خَطَرَ لَهُ أَنْ لَصًا قَدْ تَسَلَّلَ إِلَى الكُؤُخِ وَسَرَقَ مَالَهُ . وَجَلَبَتْ لَهُ تِلْكَ الْفِكْرَةُ شَيْئًا مِنَ الرَّاحَةِ وَالْعَزَاءِ ؛ إِذْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللُّصُوصَ غَالِبًا مَا يُقْبِضُ عَلَيْهِمْ ، فَتَوَخَّذَ مِنْهُمْ الْمَسْرُوقَاتُ ، وَتَرَدُّ إِلَى أَصْحَابِهَا . وَفَتَحَ الْبَابَ لِيَحْتَ عَنْ آثَارِ أَقْدَامٍ فِي الْخَارِجِ ، وَلَكِنْ الْمَطَرُ الْمِدْرَارَ كَانَ قَدْ عَفَى عَلَى كُلِّ أَثَرٍ لِلْأَقْدَامِ عَلَى أَرْضِ الطَّرِيقِ . وَاضْطَرَبَ سَايِلًا اضْطِرَابًا شَدِيدًا ، وَلَمْ يَدْرِ مَاذَا يَفْعَلُ ! غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ



يَلْبَثُ أَنْ هَرَوَلَ إِلَى الْقَرْيَةِ ، وَسَطَ الظَّلَامِ وَالْأَمْطَارِ ، لِيُعْلِنَ هُنَاكَ
عَنْ كَنْزِهِ الثَّمِينِ الَّذِي فَقِدَ ، عَسَى أَنْ يَقْبُضَ رُؤَسَاءُ الْقَرْيَةِ عَلَى
اللَّصِّ ، وَيَرُدُّوهُ إِلَيْهِ مَالَهُ الْمَسْرُوقَ . وَعِنْدَمَا اقْتَرَبَ مِنَ الْقَرْيَةِ أَبْطَأَ
السَّيْرَ ، وَمَرَّ أَمَامَ الْفُنْدُقِ الصَّغِيرِ الْمُسَمَّى بِقَوْسٍ قُزَحَ ، الَّذِي يَقَعُ
عَلَى مَشَارِفِ الْقَرْيَةِ ، وَالَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ أَهْلُ الْقَرْيَةِ لِلسَّمْرِ وَتَنَاوُلِ
الشَّرَابِ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ دَلَفَ إِلَى دَاخِلِ الْفُنْدُقِ .

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، كَانَتْ هُنَاكَ حَفْلَةٌ رَقْصٍ فِي بَيْتِ السَّيِّدَةِ
أَوْسُغُودَ بِمُنَاسَبَةِ عِيدِ مِيلَادِهَا . وَلِهَذَا فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ
الْمَعْرُوفِينَ لَمْ يَقْصِدْ فُنْدُقَ قَوْسٍ قُزَحَ كَمَا اعْتَادُوا أَنْ يَفْعَلُوا كُلُّ
مَسَاءٍ . عَلَى أَنَّ أَشْخَاصًا قَلِيلِينَ كَانُوا مُجْتَمِعِينَ هُنَاكَ يَقْطَعُونَ
الْوَقْتَ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْأَشْبَاحِ ، عِنْدَمَا ظَهَرَ سَايْلَاسُ مَارْنَرُ أَمَامَهُمْ
فَجَاءَهُ ، وَقَدْ بَدَأَ كَشَبَحَ مِنْ تِلْكَ الْأَشْبَاحِ الَّتِي كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ عَنْهَا .
وَرَأَى الصَّمْتَ عَلَى الْجَالِسِينَ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ سَايْلَاسُ أَنْ يَنْطِقَ بِشَيْءٍ
فِي الْحَالِ بِسَبَبِ إِرْهَاقِهِ وَانْفِعَالِهِ الشَّدِيدَيْنِ . عِنْدَئِذٍ بَادَرَهُ السَّيِّدُ
إِسْنِلَ ، صَاحِبُ الْفُنْدُقِ ، بِسْؤَالِهِ : « مَاذَا تُرِيدُ يَا سَيِّدُ مَارْنَرُ ، وَمَا
الَّذِي أَتَى بِكَ ؟ »

أَجَابَ سَايْلَاسُ وَهُوَ لَا يَزَالُ يَلْهَثُ : « لَقَدْ سَرَقْتُ يَا سَيِّدُ إِسْنِلَ !

سَرَقْتُ كُلَّ نُقُودِي ! أُرِيدُ مُقَابَلَةَ ضَابِطِ الشَّرْطَةِ وَالْقَاضِي
وَالشَّرِيفِ كَاسَ ، عُمْدَتِنَا . »

صَاحَ السَّيِّدُ إِسْنِلَ : « أَمْسِكْ بِهِ يَا جِيمَ ، فَهُوَ يَبْدُو مَرِيضًا ،
وَيُوشِكُ أَنْ يَسْقُطَ مَغْشِيًا عَلَيْهِ ! »

وَتَطَّلَعَ سَايْلَاسُ إِلَى جِيمَ ، وَرَاوَدَهُ شَكٌّ فِي أَنَّهُ السَّارِقُ لِأَنَّهُ جَاءَ
إِلَى كُوْخِهِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ مِنْ قَبْلُ أَثْنَاءَ تَجَوُّلِهِ لِصَيْدِ الْأَرَانِبِ . وَحَدَّجَ
سَايْلَاسُ جِيمَ بِنَظَرَةٍ قَاسِيَةٍ ، ثُمَّ صَاحَ قَائِلًا : « جِيمَ رُودَنِي ! »

أَجَابَ جِيمَ وَهُوَ يَرْتَعِشُ قَلِيلًا : « نَعَمْ يَا سَيِّدُ مَارْنَرُ ... مَاذَا تُرِيدُ
مِنِّْي ؟ »

« إِذَا كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي سَرَقْتَ نُقُودِي ، فَأَعِدْهَا إِلَيَّ فِي الْحَالِ .
لَنْ أَقُولَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا . رُدِّ إِلَيَّ النُّقُودَ ، وَسَوْفَ أُعْطِيكَ قِطْعَةً ذَهَبِيَّةً
كَبِيرَةً . »

اسْتَشْطَاطَ جِيمَ غَضَبًا ، وَصَاحَ عَلَى الْفُورِ وَهُوَ يَكَادُ يَهْمُ بِضَرْبِهِ
قَائِلًا : « أَنَا سَرَقْتُ نُقُودَكَ ؟ ! كَرَّرْ مَا قُلْتَ ثَانِيًا وَسَوْفَ أَجْعَلُكَ تَنْدَمُ
عَلَى تَوَجُّعِهِ مِثْلَ هَذِهِ التُّهْمَةِ إِلَيَّ ! »

عِنْدَئِذٍ أَخَذَ إِسْنِلَ بِذِرَاعِ سَايْلَاسَ قَائِلًا : « تَعَالَ يَا سَيِّدُ مَارْنَرُ .

لَا تُوجِّهِ التُّهَمَ جُزَافًا ، وَلَتَتَحَدَّثَ بِهِدْوٍ وَسَنُصْغِي إِلَيْكَ . وَالْآنَ
اجْلِسْ هُنَا وَقُلْ مَا تُرِيدُ بِوُضُوحٍ .

وَأَعَانَ سَايْلَاسُ عَلَى خَلْعِ سِتْرَتِهِ الْمُبْتَلَةِ ، ثُمَّ أَجْلَسَهُ فِي كُرْسِيِّ
أَمَامَ الْمِدْفَأَةِ ، حَيْثُ اسْتَطَاعَ كُلُّ شَخْصٍ مِنَ الْحَاضِرِينَ أَنْ يَرَاهُ .

وَقَصَّ سَايْلَاسُ قِصَّتَهُ بِالتَّفْصِيلِ ، وَكَانَ الْحَاضِرُونَ يُقَاطِعُونَهُ
بِالْأَسْئَلَةِ بَيْنَ الْحِينِ وَالْآخَرِ . وَتَأَثَّرَ الْجَمِيعُ كَثِيرًا لِمَا أَحْسَوْا بِهِ مِنْ
صِدْقِ الْقِصَّةِ الَّتِي رَوَاهَا ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ مُصِيبَةٍ جَسِيمَةٍ نَزَلَتْ بِهِ ،
فَأَحَاطُوهُ بِعَظْفِهِمْ ، وَشَارَكُوهُ مَشَاعِرَهُ الْحَزِينَةَ . وَتَعَزَّى سَايْلَاسُ قَلِيلًا
بِذَلِكَ الْعَظْفِ الَّذِي لَمْ يَأْلَفَهُ مِنْ أَحَدٍ مِنْ قَبْلُ .

وَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ مَارْنَرُ قِصَّتَهُ ، قَالَ لَهُ إِسْنِلُ : « إِنَّ جِيمَ رُودْنِي لَمْ
يَرْتَكِبْ هَذِهِ الْجَرِيمَةَ ، يَا سَيِّدُ مَارْنَرُ ، فَلَقَدْ كَانَ جَالِسًا مَعِيَ هُنَا
مُنْذُ أَنْ غَادَرْتَ كُوْخَكَ إِلَى أَنْ عُدْتَ إِلَيْهِ وَاکْتَشَفْتَ حَدِثَ
السَّرْقَةِ . إِنَّ جِيمَ رَجُلٌ شَرِيفٌ ، وَلَا يَجْدُرُ بِكَ أَنْ تُلْقِيَ التُّهْمَةَ
عَلَيْهِ بِرُعُونَةٍ هَكَذَا . »

عِنْدَئِذٍ تَذَكَّرَ سَايْلَاسُ فَجَاءَهُ كَيْفَ أَتَاهُمْ هُوَ نَفْسَهُ ظُلْمًا بِالسَّرْقَةِ
قَبْلَ مَجِيئِهِ إِلَى رَاقِيلُو ، فَهَضَّ فِي الْحَالِ ، وَتَوَجَّهَ إِلَى جِيمَ قَائِلًا :

« إِنِّي آسِفٌ يَا جِيمَ ، فَلَقَدْ كُنْتُ مُخْطِئًا وَأَحْمَقَ ! لَقَدْ ظَنَنْتُ بِكَ
السُّوءَ لِأَنَّكَ كُنْتَ الشَّخْصَ الْوَحِيدَ الَّذِي جَاءَ مِنْ قَبْلُ إِلَى مَنْزِلِي ،
وَلَكِنِّي الْآنَ أَعْتَذِرُ عَنْ اتِّهَامِي لَكَ . أَنَا الْآنَ لَا أَتُهُمُ أَيَّ شَخْصٍ .
إِنِّي .. إِنِّي ... »

وَرَفَعَ سَايْلَاسُ يَدَيْهِ إِلَى رَأْسِهِ فِي بُؤْسٍ وَتَعَاسَةٍ ، ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلًا :
« إِنِّي سَاحَاوِلٌ فَقَطْ أَنْ أَفَكَّرَ أَيْنَ يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ نُقُودِي قَدْ
ذَهَبَتْ . »

وَسَأَلَهُ أَحَدُ الْحَاضِرِينَ فِي شَفَقَةٍ وَرَثَاءٍ : « كَمْ مِنَ النُّقُودِ كَانَ
فِي الْحَقِيقَتَيْنِ يَا سَيِّدُ مَارْنَرُ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيبِ ؟ »

أَجَابَ سَايْلَاسُ فِي الْحَالِ : « مِئَتَانِ وَاثْنَانِ وَسَبْعُونَ جَنِيْهًا وَاثْنَا
عَشَرَ شِلِينًا وَسِتَّةَ بِنَسَاتٍ ، كَمَا عَدَدْتُهَا فِي اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ . »

قَالَ الرَّجُلُ : « إِذَا فَهِيَ لَيْسَتْ عَسِيرَةً عَلَى الْحَمْلِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ
مَارًّا فِي الطَّرِيقِ قَدْ دَخَلَ الْكُوْخَ وَسَرَقَ النُّقُودَ . وَالْآنَ يَجِبُ أَنْ
تَذْهَبَ بِرُفْقَةِ اثْنَيْنِ مِنَ الْفُنْدُقِ لِضَابِطِ الشَّرْطَةِ فِي مَنْزِلِهِ لِتُرْوِيَ لَهُ
قِصَّتَكَ ، فَالرَّجُلُ مَرِيضٌ وَرَاقِدٌ فِي فِرَاشِهِ . »

وَأَسْتَبَدَلَ سَايْلَاسُ بِمَلَابِسِهِ الْمُبْتَلَةِ مَلَابِسَ أُخْرَى جَافَّةً أَعْطَوْهَا لَهُ

في الفندق ، وَخَرَجَ مَرَّةً أُخْرَى ، وَسَارَ وَسَطَ الْوَحْلِ وَالْأَمْطَارِ ،
مُتَّجِهَاً إِلَى مَنْزِلِ ضَابِطِ الشُّرْطَةِ .

الفصل السادس

غودفري وكارثة الجواد

عِنْدَمَا عَادَ غُودْفَرِي مِنْ حَفْلَةِ مَدَامِ أَوْسُغُود فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ،
عَرَفَ أَنَّ أَخَاهُ دَنْسِي لَمْ يَعُدْ بَعْدُ إِلَى الْبَيْتِ ، وَلَمْ يَدْهَشْ كَثِيرًا
لِذَلِكَ ؛ إِذْ ظَنَّ أَنَّ بَيْعَ الْجَوَادِ اسْتَعْرَقَ وَقْتًا أَطْوَلَ ، أَوْ أَنَّ دَنْسِي
أُضْطَرَّ لِلْمَبِيتِ فِي أَحَدِ الْفَنَادِقِ بِقَرْيَةِ أُخْرَى بِسَبَبِ غَزَاةِ الْأَمْطَارِ .
عَلَى أَنَّ غُودْفَرِي كَانَ مَشْغُولَ الْفِكْرِ حِينَئِذٍ بِنَظَرَاتِ نَانْسِي لَامِيتَر
وَسُلُوكِهَا مَعَهُ خِلَالَ الْحَفْلِ ؛ كَمَا كَانَ يَتَمَلَّكُهُ السُّخْطُ عَلَى
نَفْسِهِ وَحَيَاتِهِ ، وَهُوَ السُّخْطُ الَّذِي كَانَ يُحِسُّ بِهِ غُودْفَرِي دَائِمًا
عَقِبَ كُلِّ لِقَاءٍ مَعَ مَحْبُوبَتِهِ الْفَاتِنَةِ .

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ انْتَشَرَ خَبَرُ سَرَقَةِ ثَرَوَةِ سَايْلَاسِ مَارْنَرِ فِي
الْقَرْيَةِ كُلِّهَا . وَاهْتَمَّ غُودْفَرِي كَاسَ ، مِثْلَ سَائِرِ أَهْلِ الْقَرْيَةِ بِجَمْعِ
الْمَعْلُومَاتِ عَنْ ذَلِكَ الْحَادِثِ الْمُؤْسِفِ . وَبِمُعَايَنَةِ الْمَحْجَرِ الْمُجَاوِرِ

لِلْكُوخِ الْمَسْرُوقِ ، وَجِدَ بِالْقُرْبِ مِنْهُ صُنْدُوقٌ صَغِيرٌ يَحْتَوِي عَلَى حَجَرٍ مِنَ الصَّوَّانِ وَقِطْعَةٍ مِنَ الصُّلْبِ . تِلْكَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْدَمُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ لِإِشْعَالِ النَّارِ قَبْلَ اخْتِرَاعِ أَعْوَادِ الثَّقَابِ . وَلَمَّا كَانَ سَائِلَاسُ لَا يَمْتَلِكُ ذَلِكَ الصُّنْدُوقَ ، فَقَدْ شَاعَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّهُ يَخْصُ السَّارِقَ .

وَعَقِدَ اجْتِمَاعٌ فِي فُنْدُقِ قَوْسٍ فَرَحَ يَضُمُّ أَحَدَ شُيُوخِ الْقَرْيَةِ وَالشَّرِيفَ كَاسَ وَآخَرِينَ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ لِبَحْثِ الْأَمْرِ . وَقَالَ السَّيِّدُ إِسْنَلُ إِنَّ بَائِعًا مَتَجَوْلًا حَضَرَ إِلَى مَنْزِلِهِ مُنْذُ نَحْوِ شَهْرَيْنِ ، وَكَانَ يَحْمِلُ ضِمْنَهُ بِضَاعَتَهُ صُنْدُوقًا لِلْإِشْعَالِ ، وَرَجَّحَ السَّيِّدُ إِسْنَلُ أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ هُوَ السَّارِقُ ، سَيِّمًا وَأَنَّهُ لَمْ يَطْمَئِنَّ حِينَئِذٍ إِلَى مَظْهَرِهِ وَنَظَرَاتِهِ . وَأَمَّنَ الْحَاضِرُونَ عَلَى كَلَامِهِ ؛ غَيْرَ أَنَّ سَائِلَاسَ أَكَّدَ لَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ الْبَائِعَ الْمُتَجَوِّلَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ السَّارِقَ ، لِأَنَّهُ حِينَمَا أَعْلَنَهُ ، عِنْدَمَا حَضَرَ إِلَى الْكُوخِ ، بَانَ لَهُ لَيْسَ فِي حَاجَةٍ إِلَى شَيْءٍ مِنْ بِضَاعَتِهِ ، انْصَرَفَ فِي الْحَالِ ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْكُوخَ .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ انْشِغَالِ غُودْفَرِي كَاسَ بِمَا حَدَّثَ لِسَائِلَاسَ مَارْتَرِ ، فَإِنَّهُ بَدَأَ يُحْسِ بِالْقَلْقِ بِخُصُوصِ جَوَادِهِ وَأَخِيهِ دَانِسْتَانَ ، وَأَخَذَ يَلُومُ نَفْسَهُ عَلَى الثَّقَةِ بِشَقِيْقِهِ وَتَفْرِيطِهِ فِي جَوَادِهِ الثَّمِينِ . كَانَ

يَخْشَى أَنْ يَكُونَ دَانِسْتَانُ قَدْ خَدَعَهُ ، وَهَرَبَ بِالْجَوَادِ إِلَى جِهَةِ بَعِيدَةٍ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ رَكِبَ حِصَانًا وَسَارَ بِهِ نَحْوَ قَرْيَةٍ أُخْرَى تُسَمَّى بِأَذْرَلِي فِي مُحَاوَلَةٍ لِتَقْصِي أَخْبَارِ أَخِيهِ . وَفِي طَرِيقِهِ إِلَى تِلْكَ الْقَرْيَةِ ، لَمَحَ مِنْ بَعِيدٍ شَبَحَ فَارِسَ قَادِمًا نَحْوَهُ ، فَازْدَادَتْ دَقَّاتُ قَلْبِهِ . أَوْ يَكُونُ الْجَوَادُ الْقَادِمُ هُوَ جَوَادُهُ ؟ وَحَثَّ غُودْفَرِي حِصَانَهُ حَتَّى يَلْتَقِيَ بِهِ ، فَلَمَّا قَرَّبَ مِنْهُ وَتَبَيَّنَ بَوْضُوحُ إِذَا بِهِ يَرَى أَنَّهُ لَيْسَ جَوَادُهُ الْمَحْبُوبَ ، وَأَنَّ الرَّاكِبَ لَيْسَ أَخَاهُ ، بَلْ كَانَ السَّيِّدَ بَرَايْسَ الَّذِي كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَشْتَرِيَ الْجَوَادَ ، وَتَوَقَّفَ غُودْفَرِي لِلتَّحَدُّثِ إِلَى السَّيِّدِ بَرَايْسَ .

قَالَ بَرَايْسُ مُتَهَكِّمًا : « حَسَنٌ يَا سَيِّدُ غُودْفَرِي ، إِنَّ أَخَاكَ هَذَا شَابٌّ مَحْظُوظٌ حَقًّا ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

وَفَرَعَ غُودْفَرِي مِمَّا قَدْ يَتْلُو تِلْكَ السُّخْرِيَّةَ مِنْ أَنْبَاءِ سَيِّئَةٍ ؛ فَصَاحَ عَلَى الْفَوْرِ : « مَاذَا فَعَلَ بِجَوَادِي ؟ أَخْبِرْنِي بِسُرْعَةٍ ! »

قَالَ السَّيِّدُ بَرَايْسُ : « آه ، لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ جَوَادُكَ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ ادَّعَى أَنَّكَ بَعْتَهُ لَهُ ! »

صَاحَ غُودْفَرِي ، وَقَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ مِنَ الْغَضَبِ : « بِرَبِّكَ خَبِّرْنِي ، هَلْ أَوْقَعَهُ وَكَسَّرَ سَاقَهُ ؟ »

« بَلْ أَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ ، يَا سَيِّدَ غَوْدَفْرِي . لَقَدْ اتَّفَقْتُ مَعَهُ عَلَى شِرَاءِ الْجَوَادِ بِمِئَةِ وَعِشْرِينَ جَنْيَهَا ، وَهُوَ ثَمَنٌ مُرْتَفِعٌ لَمْ أَكُنْ لِادْفَعَهُ لَوْلَا أَنَّنِي أُعَشِّقُ هَذَا الْجَوَادَ ، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ ! »

« ماذا ؟! هل مات ؟! »

« نَعَمْ ، لِلْأَسَفِ الشَّدِيدِ ! لَقَدْ قَتَلَهُ أَخُوكَ الْأَحْمَقُ وَهُوَ يَجْتَازُ بِهِ فِي رُعُونَةٍ سِيَاجًا عَالِيًا ذَا أَسْنَانٍ مُدْبِيَّةٍ ، يَقَعُ فِي أَعْلَى التَّلِّ . وَعِنْدَمَا تَجْمَعُ النَّاسُ حَوْلَهُ ، وَجَدُوا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ . أَلَمْ يَعُدْ أَخُوكَ إِلَى الْمَنْزِلِ حَتَّى الْآنَ ؟ »

أَجَابَ غَوْدَفْرِي فِي أَسَى غَاضِبٍ : « نَعَمْ . وَمِنْ الْخَيْرِ لَهُ أَلَّا يَعُودَ أَبَدًا ! يَا لِي مِنْ رَجُلٍ أَحْمَقٍ ! لَقَدْ كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَدْرِكَ أَنَّ هَذِهِ سَوْفَ تَكُونُ نِهَايَةَ الْأَمْرِ ! »

سَأَلَهُ السَّيِّدُ بَرَايْسَ : « وَلَكِنْ أَيْنَ تَرَاهُ قَدْ ذَهَبَ ؟ إِنَّ أَحَدًا لَمْ يَرَهُ فِي بَاذِرْلِيِّ بَعْدَ ذَلِكَ . لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصِيبَ عِنْدَمَا سَقَطَ بِهِ الْجَوَادُ ، لِأَنَّهُ سَارَ مَسَافَةً طَوِيلَةً عَقِبَ الْحَادِثِ . »

قَالَ غَوْدَفْرِي بِمَرَارَةٍ شَدِيدَةٍ : « لَا شَيْءَ يُصِيبُهُ بِأَذَى ! بَلْ إِنَّهُ يُصِيبُ الْآخَرِينَ بِالْأَذَى ! »



« اَعْتَقِدْ أَنَّ السَّيِّدَ دَنَسِي لَا يَرْعَبُ فِي الظُّهُورِ قَبْلَ أَنْ يَنْتَشِرَ نَبَأُ
مَصْرَعِ الْجَوَادِ ، وَلَعَلَّهُ قَدْ نَزَلَ بِفُنْدُقِ « هَوَيْتَ بَرِيدِج » ، فَأَنَا
أَعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الْمُغْرَمِينَ بِهَذَا الْفُنْدُقِ . »

وَاسْتَدَارَ غُودْفَرِي بِحِصَانِهِ قَائِلًا فِي دُهُولٍ : « رَبِّمَا . وَالْآنَ
سَأَعُودُ أَنَا إِلَى الْمَنْزِلِ . إِلَى اللَّقَاءِ ! »

وَسَارَ غُودْفَرِي بِجَوَادِهِ فِي اتِّجَاهِ الْبَيْتِ . وَقَضَى طَوَالَ الطَّرِيقِ
يُفَكِّرُ فِي الْمَازِقِ الْحَرَجِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ ، وَوَجَدَ فِي نِهَايَةِ الْأَمْرِ أَنَّهُ لَا
مَفْرَءَ مِنَ الْاعْتِرَافِ بِكُلِّ شَيْءٍ لِأَبِيهِ .

وَأَوَى إِلَى فِرَاشِهِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، وَهُوَ عَاقِدٌ الْعَزْمَ عَلَى الْإِفْضَاءِ
لِوَالِدِهِ بِحَقَائِقِ الْأَمْرِ فِي الصَّبَاحِ .

وَلَكِنْ مَا إِنْ طَلَعَ الْفَجْرُ حَتَّى لَاحَتْ لَهُ أَشْبَاحُ الْفَضِيحَةِ وَالْعَارِ .
وَحَشِيَ حَرْمَانَهُ مِنْ نَانْسِي ، الَّذِي قَدْ يَجَرُّهُ إِلَيْهِ الْإِعْتِرَافُ الْكَامِلُ
بِكُلِّ شَيْءٍ ؛ فَعَدَلَ عَنْ تَصْمِيمِهِ السَّابِقِ ، وَآثَرَ الْإِحْتِفَاطَ بِسِرِّ زَوَاجِهِ
عَلَى أَنْ يُخْبِرَ وَالِدَهُ بِالنُّقُودِ الَّتِي أَخَذَهَا دَنَسِي مِنْهُ ، مُحَاوِلًا مَا
أَمَكَّنَ التَّخْفِيفَ مِنَ غَضَبِ الْأَبِ عَلَيْهِ . وَتَمَنَّى غُودْفَرِي أَنْ يَبْقَى
ذَلِكَ الْأَخُ الْمُسْتَهْتَرُ بِضَعَةِ أَيَّامٍ آخَرَ خَارِجَ الْبَيْتِ حَتَّى يَتِمَّ الْأَمْرُ
وَفَقَّ مَا يَرُومُ .

الفصل السابع

اعتراف غودفري

نَهَضَ غُودْفَرِي مُبَكَّرًا فِي الصَّبَاحِ ، وَتَنَاوَلَ إِفْطَارَهُ ، ثُمَّ أَسْرَعَ
إِلَى حُجْرَةِ الْجُلُوسِ يَنْتَظِرُ قَدُومَ أَبِيهِ .

وَدَلَفَ الشَّرِيفُ إِلَى الْحُجْرَةِ ، وَكَانَ رَجُلًا طَوِيلًا مُمْتَلِئًا الْجِسْمِ ،
ذَا مَهَابَةٍ وَجَلَالٍ ، وَتَطَلَّعَ إِلَى ابْنِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ دُونَ تَحِيَّةٍ : « أَلَمْ
تَتَنَاوَلَ إِفْطَارَكَ بَعْدُ ؟ »

أَجَابَ غُودْفَرِي : « لَقَدْ تَنَاوَلْتُهُ ، يَا سَيِّدِي ، غَيْرَ أَنَّنِي بَقِيتُ
بِالْمَنْزِلِ لِأَتَحَدَّثَ إِلَيْكَ . لَقَدْ أَصَابَنِي سُوءُ الْحَظِّ فِي جَوَادِي أَوَّلَ
أَمْسٍ ! »

تَسَاءَلَ الشَّرِيفُ فِي دَهْشَةٍ قَائِلًا : « مَاذَا ؟ ! هَلْ كُسِرَتْ سَاقُهُ ؟
كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّكَ تُجِيدُ رُكُوبَ الْخَيْلِ عَلَى الْأَقْل ! إِنْنِي لَمْ أَقَعْ

آخَر . لَقَدْ اقْتَرَضَ مِنِّي دَنْسِي قِيمَةَ الْإِيجَارِ الَّتِي سَدَّدَهَا فُولَرُ بِالْفِعْلِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرُدِّ الْمَبْلَغَ ، وَلَقَدْ سَلَّمَتُهُ الْجَوَادُ النَّادِرَ لِبَيْعِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ قَتَلَهُ بِسَبَبِ حِمَاقَتِهِ وَتَهَوُّرِهِ فِي الرُّكُوبِ . وَلَوْ لَا هَذِهِ الْحَادِثَةُ الْمُؤَسِفَةُ لَكُنْتُ قَدْ دَفَعْتُ لَكَ مِئَةَ الْجَنِيهِ الْآنَ .»

وَأَلْقَى الشَّرِيفُ الشُّوْكَةَ وَالسَّكِينَ عَلَى الْمَائِدَةِ ، وَتَطَلَّعَ إِلَى ابْنِهِ فِي دَهْشَةٍ شَدِيدَةٍ . عِنْدَئِذٍ بَادَرَهُ غُودْفَرِي بِالْقَوْلِ : « أَجَلُ يَا سَيِّدِي ، لَقَدْ دَفَعْتُ لِي فُولَرُ الْمَبْلَغَ عِنْدَمَا قَصَدْتُ حَقْلَهُ يَوْمًا خِلَالَ الشَّهْرِ الْمَاضِي ، وَلَكِنِّي أُعْطِيتُ الْمَبْلَغَ لِأَخِي الَّذِي كَانَ قَدْ أَلَحَّ فِي طَلْبِهِ ، وَكُنْتُ مُوقِنًا مِنْ أَنَّنِي سَوْفَ أَسْتَطِيعُ تَسْدِيدَهُ لَكَ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ .»

وَأَسْتَشَاطَ الشَّرِيفُ غَضَبًا ، وَصَاحَ قَائِلًا : « هَلْ أُعْطِيتَ دَنْسِي النُّقُودَ ؟ مِنْذُ مَتَى تُصَادِقُ دَنْسِي ، وَتُعَاوَنُهُ عَلَى سَرَقَةِ نَقُودِي ؟ لِمَاذَا أُعْطِيتَهُ النُّقُودَ يَا غُودْفَرِي ؟ هَيَّا انْطِقْ ، وَلَا تَقُلْ كَذِبًا .»

أَجَابَ غُودْفَرِي : « لَنْ أَقُولَ سِوَى الْحَقِّ الصُّرَاحِ . لَمْ أَنْفِقْ بِنِسَاءٍ وَاحِدًا مِنْ تِلْكَ النُّقُودِ عَلَى نَفْسِي ، يَا سَيِّدِي . لَقَدْ طَلَبَهَا مِنِّي دَنْسِي بِالْحَاحِ . اعْتَرَفْتُ أَنَّنِي كُنْتُ مُخْطِئًا فِي تَسْلِيمِهَا إِلَيْهِ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَعْتَزِمُ رَدَّهَا إِلَيْكَ فِي أَقْرَبِ فُرْصَةٍ .»



بِالْحِصَانِ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي حَيَاتِي ، وَلَوْ كُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ لَمَا اشْتَرَى لِي وَالِدِي حِصَانًا آخَرَ . وَالْآنَ يَجِبُ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّنِي فِي ضَائِقَةٍ مَالِيَّةٍ ، وَأَنَّهُ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الْمَدْعُوِّ فُولَرُ أَنْ يَدْفَعَ إِيجَارَ الْأَرْضِ الْمُتَأَخَّرَ لَدَيْهِ . عَلَيْكَ إِذَا بِهِذَا الرَّجُلِ ، فَإِنَّنِي لَنْ أُنْتَظِرَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ .»

وَتَمَلَّكَتِ الْحَيْرَةُ وَالْخَوْفُ غُودْفَرِي مِنْ ذَلِكَ الْإِسْتِهْلَالِ السَّيِّئِ لِحَدِيثِ وَالِدِهِ ، بَيِّدَ أَنَّهُ اسْتَجْمَعَ أَطْرَافَ شَجَاعَتِهِ وَقَالَ : « إِنَّ الْأَمْرَ أَسْوَأُ مِنْ كَسْرِ السَّاقِ ، يَا وَالِدِي ؛ فَلَقَدْ لَقِيَ الْجَوَادُ مَصْرَعَهُ . عَلَى أَنَّنِي لَسْتُ الْمَلُومَ فِيمَا حَدَثَ ؛ كَمَا أَنَّنِي لَا أَطْمَحُ إِلَى شِرَاءِ جَوَادٍ

صاح الشَّريفُ : « أَيْنَ دَنَسِي الْآنَ ؟ اذْهَبْ وَأَحْضِرْهُ لِأَرَى مَاذَا
فَعَلَ بِنُقُودِي . سَوْفَ أَجْعَلُهُ يَنْدَمُ عَلَى ذَلِكَ ، سَوْفَ أَطْرُدُهُ مِنَ
الْمَنْزِلِ ، كَمَا قُلْتُ مِرَارًا مِنْ قَبْلُ . »

« إِنَّهُ لَمْ يَعْذُ بَعْدُ ، يَا سَيِّدِي . »

صاح الشَّريفُ : « مَاذَا ؟ هَلْ كَسِرَ عُنُقَهُ هُوَ أَيْضًا ؟ »

« لَا ، لَقَدْ ابْتَعَدَ عَنْ مَكَانِ الْحَادِثِ ، وَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مُنْذُ تِلْكَ
اللَّحْظَةِ . »

« وَلَكِنْ أَجِبْنِي عَلَى الْفَوْرِ ، لِأَيِّ غَرَضٍ أَعْطَيْتَهُ النُّقُودَ ؟ »

لَمْ يَكُنْ غُودْفَرِي يُحِبُّ الْكَذِبَ ، فَقَالَ : « لَسْتُ أَدْرِي ،
يَا سَيِّدِي . »

« لَسْتُ تَدْرِي ؟ ! سَأَقُولُ لَكَ أَنَا السَّبَبَ يَا غُودْفَرِي ؛ لَا بُدَّ أَنَّكَ
قَدْ ارْتَكَبْتَ خَطَأً مَا ، وَأَرَدْتَ أَنْ تَرْشُوَ دَانِسْتَانَ لِيَتَسَرَّ عَلَيْكَ . »

وَاضْطَرَبَ غُودْفَرِي اضْطِرَابًا شَدِيدًا لِصِدْقِ حَدْسِ وَالِدِهِ ، وَلَكِنَّهُ
حَاوَلَ أَنْ يَتِمَّا لِكَ نَفْسِهِ وَيَبْدُوَ مَتَمَاسِكًا رَابِطَ الْجَاشِ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ
قَالَ فِي هُدُوءٍ مُصْطَنَعٍ : « لَا يَا سَيِّدِي . إِنَّ الْأَمْرَ لَا يَعْدُو تِلْكَ

الصَّغَائِرِ التَّافِهَةِ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَى رُعُونَةِ الشَّبَابِ وَطَيْشِهِمْ ! »

صاح الشَّريفُ غَاضِبًا : « أَيُّ صَغَائِرِ تِلْكَ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْهَا ؟
إِنَّكَ لَمْ تَعُدِ الْآنَ شَابًّا صَغِيرًا طَائِشًا ، وَلَسْتُ مُسْتَعِدًّا لِأَنْ أَتَكْفَلَ
بِنَفَقَاتِ صَغَائِرِكَ . عَلَيْكَ أَنْ تُغَيِّرَ أَسْلُوبَ حَيَاتِكَ ؛ فَأَنْتَ الْآنَ مُقَدِّمٌ
عَلَى الزَّوْاجِ . إِنِّي أَذْكَرُ الْآنَ جَدِّي الَّذِي كَانَ يَعِيشُ فِي ظُرُوفٍ
أَسْوَأَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ الْآنَ بِكَثِيرٍ ، وَلَكِنْ بَيْتُهُ كَانَ مَلِيئًا بِالْخَيْرِ . لَمْ لَا
أَسْتَطِيعُ أَنَا التَّمَتُّعُ بِمِثْلِ مَا كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ ؟ لِأَنَّ ابْنِي لَيْسَ إِلَّا عِبْنًا
يُثْقَلُ ظَهْرِي ، وَأَنْتَ لَا تُعِينُنِي فِيمَا أَنْهَضُ بِهِ مِنْ عَمَلٍ . »

أَجَابَ غُودْفَرِي فِي هُدُوءٍ : « لَقَدْ عَرَضْتُ عَلَيْكَ مَعُونَتِي مِرَارًا
يَا سَيِّدِي ، وَلَكِنَّكَ كُنْتَ تَرْفُضُ وَتَقُولُ إِنَّ مَكَانَكَ لَنْ يَسُدَّهُ أَحَدٌ . »

قَالَ الشَّريفُ : « لَسْتُ أَذْكَرُ ذَلِكَ ، وَلَكِنِّي أَذْكَرُ الْآنَ شَيْئًا
وَاحِدًا ، هُوَ أَنَّكَ كُنْتَ تَسْعَى لِأَنْ تَتَزَوَّجَ نَانْسِي لَامِيتَر . لَقَدْ تَأَكَّدَ
لِي أَنَّكَ تُحِبُّهَا ، وَأَنَا لَا أَعَارِضُ شَخْصِيًّا فِي هَذَا الزَّوْاجِ ، فَهَلْ
رَفَضْتَ الْفَتَاةَ الزَّوْاجَ بِكَ ؟ »

أَجَابَ غُودْفَرِي فِي خَجَلٍ وَاضْطِرَابٍ : « لَا ، وَأُظَنُّ أَنَّهَا سَوْفَ
تَقْبَلُ الزَّوْاجَ بِي . »

« تَظُنُّ ؟ وَلِمَاذَا لَا تَوْجَدُ لَدَيْكَ الشُّجَاعَةَ لِأَنْ تَسْأَلَهَا ؟ أَتُرِيدُ أَنْ
تَتَرَوَّجَهَا أَمْ لَا ؟ »

« لَسْتُ أَطْمَحُ إِلَى الزَّوْاجِ بِامْرَأَةٍ سِوَاهَا . »

« إِذَا دَعَنِي أَطْلُبُ يَدَهَا نِيَابَةً عَنْكَ . عَلَى آيَةِ حَالٍ لَا أَظُنُّ أَنَّ آلَ
لَامِيتر يَرْفُضُونَ مُصَاهِرَتِي . »

قَالَ غُودْفري ، وَهُوَ يَرْتَجِفُ : « أَرْجُوكَ أَلَّا تَفْعَلَ هَذَا فِي الْوَقْتِ
الْحَاضِرِ عَلَى الْأَقْلَى . أَعْطِنِي الْفُرْصَةَ لِتَدَبُّرِ الْأَمْرِ . »

قَالَ الشَّرِيفُ : « حَسَنٌ ، هِيَ أَحْزَمُ أَمْرِكَ وَتَقَدَّمُ لِطَلْبِ يَدِهَا ،
ثُمَّ حَاوَلَ أَنْ تَحْيَا مِنَ الْآنَ حَيَاةَ أَفْضَلٍ مِنْ هَذِهِ الَّتِي تَحْيَاهَا . هَذَا مَا
يَجِبُ أَنْ يَفْعَلَهُ الرَّجُلُ حِينَ يُفَكِّرُ فِي الزَّوْاجِ . وَالْآنَ بَعْدَ جَوَادِ
دَنْسِي ، وَسَلَّمْنِي ثَمَنَهُ عَلَى الْفَوْرِ ، فَأَنَا لَنْ أَسْمَحَ لَهُ بَعْدَ الْآنَ
بِالِإِحْتِفَازِ بِجَوَادٍ خَاصٍّ عَلَى حِسَابِي . وَإِذَا كُنْتَ تَعْرِفُ مَكَانَهُ ،
فَأَخْبِرْهُ بِأَلَّا يَدْخُلَ هَذَا الْمَنْزِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ ، فَهُوَ يَسْتَطِيعُ الْآنَ أَنْ يَعْمَلَ
نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ . »

وَعَادَرَ غُودْفري الْحُجْرَةَ وَكَأَنَّ حِمْلًا ثَقِيلًا قَدْ أَزِيحَ عَنْ كَاهِلِهِ ،
لَكِنَّهُ كَانَ قَلِقًا مِنْ كَلَامِ وَالِدِهِ بِخُصُوصِ نَانْسِي لَامِيتر وَالتَّقَدُّمِ

لِخِطْبَتِهَا . عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا - كَعَادَتِهِ - سِوَى أَنْ
يُسَلِّمَ بِالْأَمْرِ الْوَاقِعِ وَيَأْمُلَ فِي هُبُوطِ مُنْقَذٍ مَجْهُولٍ يُخَلِّصُهُ مِنْ وَرَطَّتِهِ .

مُنْذُ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ - أَيِ مُنْذُ أَنْ كَفَّا عَنْ مُحَاوَلَاتِ إِغَاظَتِهِ
وَمُضَايَقَتِهِ الَّتِي كَانَا يَقُومَانِ بِهَا فِي أَيَّامِ الصَّبَا الْبَاكِرِ .

عَلَى أَنَّ سَايْلَاسَ الْمِسْكِينَ ظَلَّ يُعَانِي بِشِدَّةٍ مِنْ خَسَارَتِهِ
الْجَسِيمَةِ ؛ فَقَدْ كَانَ مُتَمَسِّكًا بِمَالِهِ ، شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَيْهِ ، وَكَانَ
ذَلِكَ الْمَالُ هُوَ الشَّيْءُ الْوَحِيدَ الَّذِي جَعَلَ لِحَيَاتِهِ هَدَفًا . وَكَانَ يَتَطَلَّعُ
بِشَوْقٍ إِلَى حُلُولِ الْمَسَاءِ ، لِيَجْلِسَ إِلَى مِنْضِدَّتِهِ ، وَيَنْثَرُ فَوْقَهَا قِطْعَ
النُّقُودِ الذَّهَبِيَّةِ وَالْفِضِيَّةِ ، وَيَشْرَعَ فِي عَدِّهَا وَصَفِّهَا . وَكَانَتْ تِلْكَ
هِيَ لَدُنَّهِ الْوَحِيدَةَ وَالْكُبْرَى فِي الْحَيَاةِ ، وَلَقَدْ حُرِّمَ مِنْهَا الْآنَ ظُلْمًا
وَعُدُونًا !

غَيْرَ أَنَّ الْمُصِيبَةَ الَّتِي حَلَّتْ بِسَايْلَاسَ مَارْنَرِ كَانَتْ تَحْمِلُ فِي
طَيَّاتِهَا شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ لَهُ ؛ إِذْ فَتَحَتْ أَمَامَهُ عَالَمًا لَمْ يَكُنْ يَأْلَفُهُ مِنْ
قَبْلُ . وَكَانَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ يَظُنُّونَ أَنَّهُ أَمْهَرُ وَأَذْكَى مِنْهُمْ ، وَكَانُوا
يَتَجَنَّبُونَهُ لِهَذَا السَّبَبِ ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ الْأَذَى . وَلَقَدْ اكْتَشَفُوا ،
بَعْدَ حَادِثِ السَّرِقَةِ ، أَنَّهُ لَيْسَ مَاهِرًا وَلَا ذَكِيًّا كَمَا كَانُوا يَظُنُّونَ ، وَأَنَّهُ
لَمْ يَتِمَّكُنْ مِنْ حِرَاسَةِ أَمْوَالِهِ وَالْمَحَافَظَةِ عَلَيْهَا ؛ لِذَلِكَ بَدَأُوا يُسَبِّغُونَ
عَلَيْهِ الْوَانَا شَتَّى مِنَ الْعَطْفِ وَالْحَنَانِ . وَكَانَ الْأَغْنِيَاءُ مِنْهُمْ يَبْعَثُونَ
إِلَيْهِ بِالْهَدَايَا مِنَ اللَّحُومِ وَالْأَطْعِمَةِ الْفَاخِرَةِ ، إِذْ كَانَ الْعِيدُ قَدْ اقْتَرَبَ ،

الفصل الثامن

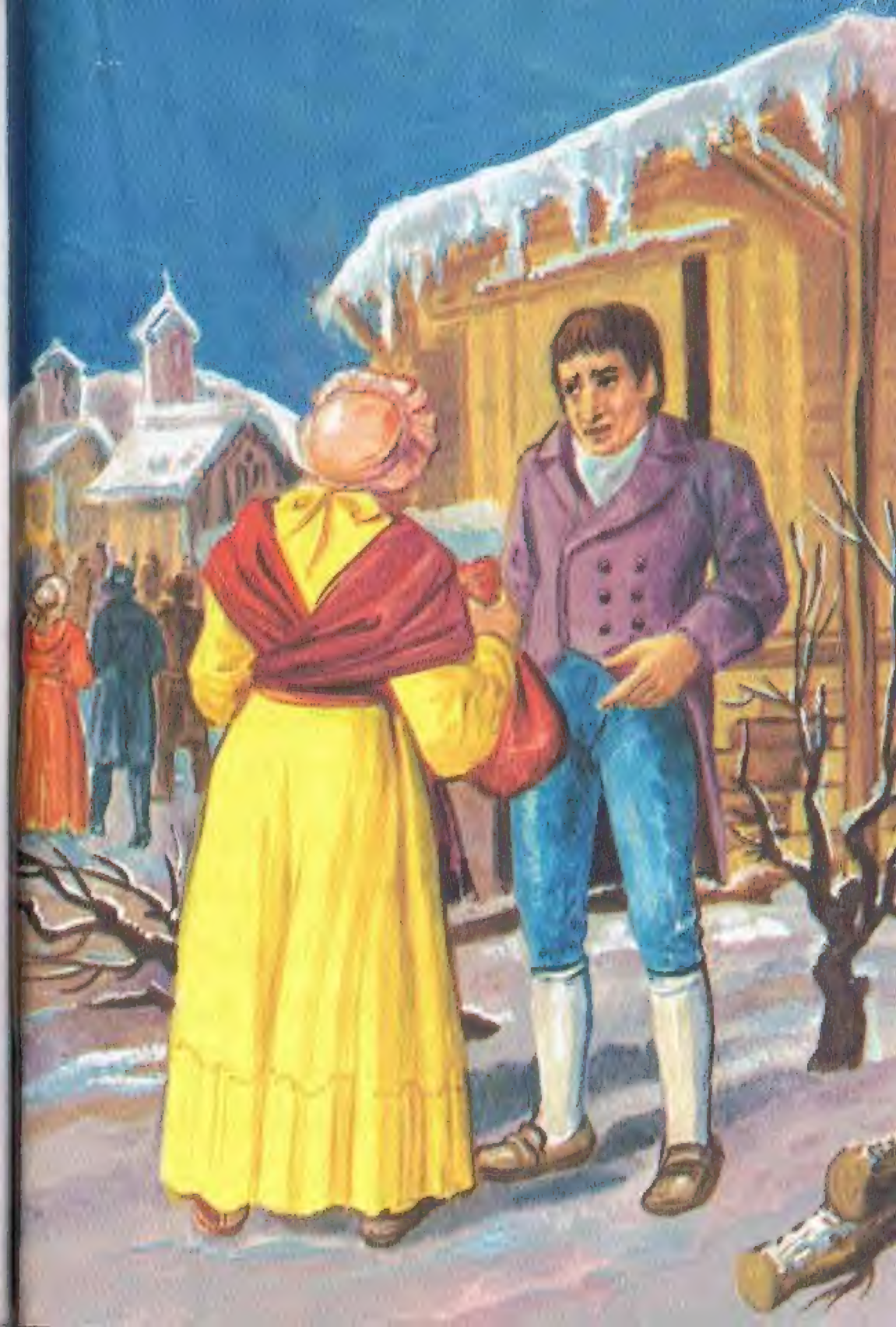
العيد في راكيلو

أُجْرِيتْ تَحْرِيَّاتٌ كَثِيرَةٌ ، عَنْ الْبَائِعِ الْمُتَجَوِّلِ الَّذِي ظَنَّ بَعْضُ
الْقُرَوِيِّينَ أَنَّهُ صَاحِبُ صُنْدُوقِ الْإِشْعَالِ ، الَّذِي وُجِدَ بِقُرْبِ الْمَحْجَرِ
الصَّغِيرِ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُسْفِرْ عَنْ شَيْءٍ . وَمَرَّتْ عِدَّةُ أُسَابِيعَ ، وَقَلَّ
اهْتِمَامُ أَهْلِ الْقَرْيَةِ بِمَا وَقَعَ لِسَايْلَاسَ مَارْنَرِ ، كَمَا لَمْ يَثِيرْ اخْتِفَاءُ
دَانِسْتَانَ كَاسِ أَيِّ دَهْشَةٍ ؛ إِذْ كَانَ قَدْ تَشَاجَرَ مَعَ وَالِدِهِ مَرَّةً قَبْلَ
ذَلِكَ ، وَاخْتَفَى عَلَى أَثَرِهَا سِتَّةَ أُسَابِيعَ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الظُّهُورِ فِي
الْبَيْتِ الْأَحْمَرِ . أَمَّا هَذِهِ الْمَرَّةُ ، فَقَدْ كَانَ وَالِدُهُ مُصَمِّمًا عَلَى جُرْمَانِهِ
مِنْ دُخُولِ الْمَنْزِلِ . وَهَكَذَا لَمْ يَتَحَدَّثْ أَفْرَادُ الْعَائِلَةِ عَنْ غِيَابِهِ ، كَمَا
لَمْ يَقْرَأْ أَحَدٌ بَيْنَ اخْتِفَائِهِ وَسَرِقَةِ سَايْلَاسَ مَارْنَرِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ
وُقُوعِهِمَا فِي الْيَوْمِ ذَاتِهِ ، وَحَتَّى غُوذِفَرِي نَفْسُهُ لَمْ يَقْرَأْ بَيْنَ هَاتَيْنِ
الْوَاقِعَتَيْنِ ؛ إِذْ إِنَّ ذِكْرَ سَايْلَاسَ لَمْ يَجْرِ فِي الْحَدِيثِ بَيْنَ الْأَخَوَيْنِ

وَالْبُيُوتُ الْغَنِيَّةُ ، لَا تَفْتَأُ تَصْنَعُ أَطْبَاقًا جَدِيدَةً مِنَ اللَّحْمِ وَالْحَلْوَى كُلَّ يَوْمٍ . أَمَّا الْقَوْمُ الْفُقَرَاءُ ، فَكَانُوا يَكْتَفُونَ بِتَحِيَّةِ سَايْلَاسَ وَالتَّوَقُّفِ لِلْحَدِيثِ مَعَهُ كُلَّمَا رَأَوْهُ ، وَكَثِيرًا مَا كَانُوا يَقْصِدُونَ كُوْخَهُ لِزِيَارَتِهِ ، وَمُعَايَنَةِ مَكَانِ الْحَادِثِ ، وَعِنْدَئِذٍ كَانُوا يُعْزُونَهُ قَائِلِينَ : « حَسَنٌ يَا سَيِّدَ مَارْتَر ، لَسْتَ - عَلَى آيَةِ حَالٍ - بِأَسْوَأَ مِنْ غَيْرِكَ مِنَ الْفُقَرَاءِ فِي كُلِّ مَكَانٍ . »

فَتَحَّ كُلُّ ذَلِكَ أَفَاقًا جَدِيدَةً بِهِيجَةً ، مِنْ الْمَشَاعِرِ الْإِنْسَانِيَةِ الرَّاقِيَةِ النَّبِيلَةِ فِي حَيَاةِ سَايْلَاسَ مَارْتَر ، لَمْ يَكُنْ يَتَذَوَّقُهَا مِنْ قَبْلُ ، وَكَانَتْ فِي مُقَدِّمَةِ الْعَاطِفِينَ عَلَيْهِ سَيِّدَةً رَقِيقَةً طَيِّبَةً الْقَلْبِ ، تُدْعَى السَّيِّدَةَ دُولِي وَنُشْرُوب . وَكَانَتْ تَزُورُهُ مَعَ ابْنِهَا آرونَ الَّذِي يَبْلُغُ السَّابِعَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، حَامِلَةً إِلَيْهِ بَعْضَ الْكَعْكَ وَالْفَطَائِرِ الَّتِي كَانَتْ تَصْنَعُهَا . وَكَانَ سَايْلَاسَ يَنْتَهَجُ كَثِيرًا لَزِيَارَةَ تِلْكَ الصَّدِيقَةِ الْحَنُونِ ، الَّتِي كَانَ يُكِنُّ لَهَا قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ الْوُدِّ وَالْاحْتِرَامِ .

وَقَالَتْ لَهُ السَّيِّدَةُ وَنُشْرُوب ، آخِرَ مَرَّةٍ زَارَتْهُ فِيهَا ، وَقَبْلَ أَنْ تَنْصَرِفَ : « أُسْتَوْدِعُكَ إِلَهَهُ يَا سَيِّدَ سَايْلَاسَ ، وَإِذَا شَعَرْتَ بِالْوَهْنِ فِي أَيِّ وَقْتٍ ، وَبِعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى تَدْبِيرِ شُئُونِكَ ، فَاتَّصِلْ بِي كَيْ أَحْضَرَ لِمُسَاعَدَتِكَ . سَوْفَ أَفْعَلُ ذَلِكَ بِكُلِّ سُرُورٍ . »



وَوَدَّعَهَا سَائِلَاسَ عِنْدَ بَابِ الْكُوخِ شَاكِرًا لَهَا فَضْلَهَا وَمَشَاعِرَهَا
الْكَرِيمَةَ . وَعِنْدَمَا غَادَرَتْ بَيْتَهُ الْمُتَوَاضِعَ ، عَادَ إِلَى عَمَلِهِ فِي النَّسْجِ
بِهَمَّةٍ وَنَشَاطٍ .

وَبَقِيَ سَائِلَاسَ وَحِيدًا فِي يَوْمِ الْعِيدِ ، عَلَى حِينِ كَانَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ
يَمْرَحُونَ وَيَنْعَمُونَ بِالْأَكْلِ وَالشَّرَابِ .

أَمَّا فِي حَقْلِ الشَّرِيفِ كَاسِ الْعَائِلِيَّةِ ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يَذْكُرْ
دَانِسْتَانَ أَوْ يَأْسَفَ لِعِغَابِهِ . وَكَانَ الدُّكْتُورُ كِمْبِلُ ، طَبِيبُ الْقَرْيَةِ ،
وَزَوْجَتُهُ ، شَقِيقَةُ الشَّرِيفِ كَاسِ ، حَاضِرَيْنِ ، وَكَانَتْ زَوْجَةُ كِمْبِلِ
تَقُومُ بِدَوْرِ السَّيِّدَةِ الْمُضَيِّفَةِ فِي الْبَيْتِ الْأَحْمَرِ .

غَيْرَ أَنَّ أَضْحَمَ حَفَلَاتِ الْعَامِ كَانَتْ تِلْكَ الَّتِي تُقَامُ لَيْلَةَ رَأْسِ
السَّنَةِ فِي بُيُوتِ الْبَلَدَةِ . وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ كَانَ الْأَقَارِبُ وَالْأَصْدِقَاءُ
يَجْتَمِعُونَ فِي الْبُيُوتِ لِلْسَّمْرِ وَالرَّقْصِ ، وَكَانَتْ الْحَشِيَّاتُ وَالْوَسَائِدُ
تُفَرَشُ عَلَى الْأَرْضِ فِي كُلِّ بَيْتٍ ، لِاسْتِيعَابِ الْعَدَدِ الْكَبِيرِ مِنَ النَّاسِ
بَعْدَ سَهْرَةِ صَاحِبَةٍ ، يَسْتَقْبِلُونَ فِيهَا الشُّعَاعَ الْأَوَّلَ مِنْ غُرَّةِ الْعَامِ
الْجَدِيدِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ . وَكَانَ غُوذُفْرِي كَاسِ يَتَطَلَّعُ إِلَى حَفَلَةِ
رَأْسِ السَّنَةِ تِلْكَ بِشَوْقٍ وَاهْتِمَامٍ شَدِيدَيْنِ ؛ إِذْ كَانَ يَطْمَحُ فِي
الْجُلُوسِ إِلَى جِوَارِ مَحَبُوبَتِهِ الْآنِسَةِ نَانْسِي لَامِيْتِرَ ، وَإِلَى مُرَاقَصَتِهَا

أَطْوَلَ وَقْتٍ مُمَكِّنِ ، وَكَانَ يَرْجُو أَلَّا يَعُودَ شَقِيقُهُ دَنْسِي إِلَى الْمُنْزِلِ
قَبْلَ حُلُولِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْهَامَّةِ الْكَبِيرَةِ . وَكَانَ يَتَوَقَّعُ إِلَى تَقْدِيمِ هَدِيَّةٍ
ثَمِينَةٍ لِنَانْسِي فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ النُّقُودَ الْلازِمَةَ
لِلذَلِكَ . وَأَفْرَطَ غُوذُفْرِي فِي الشَّرَابِ فِي الْعِيدِ ، مُتَخَيِّلًا بِذَلِكَ أَنَّهُ
يَنْسَى هُمُومَهُ وَمَخَافَتَهُ الْمُتَّصِلَةَ بِلَيْلَةِ رَأْسِ السَّنَةِ الْقَادِمَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ
يَسْتَطِعِ التَّخَلُّصَ مِنْهَا قَطُّ !

سَبِيلَهَا ؛ فَالْوَاقِعُ أَنَّ نَانْسِي لَمْ تَكُنْ تَمِيلُ إِلَيْهِ كَثِيرًا ، حَيْثُ كَانَ يَبْدُو لَهَا غَامِضًا مُتَقَلِّبَ الْمِزَاجِ . وَلَقَدْ أَظْهَرَتْ لَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ عَدَمَ رَغْبَتِهَا فِي الزَّوْاجِ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ ظَلَّ يُلَاحِظُهَا بَعْدَ ذَلِكَ بِدَلَائِلِ الْوُدِّ وَالْإِهْتِمَامِ ، وَلَيْتَهُ فَعَلَ ذَلِكَ بِصُورَةٍ مُنْتَظِمَةٍ ، فَرُبَّمَا كَانَتْ قَدْ تَأَكَّدَتْ مِنْ صِدْقِ مَشَاعِرِهِ فَمَالَتْ إِلَيْهِ . وَلَكِنَّهُ بَدَأَ لَهَا شَاذًا غَرِيبَ الْأَطْوَارِ ، فَقَدْ كَانَ يَتَجَاهَلُهَا لِأَسَابِيعٍ طَوَالٍ ، ثُمَّ يَعُودُ فَجْأَةً مُنْجَذِبًا إِلَيْهَا ، يُبْدِي لَهَا آيَاتِ الْحُبِّ وَالْإِعْجَابِ ! نَاهِيكَ عَنْ سُمُعَتِهِ السَّيِّئَةِ ، وَمَا كَانَ يَتَرَامَى إِلَيْهَا مِنْ أَحَادِيثِ النَّاسِ عَنْ حَيَاتِهِ الْخَاصَّةِ ، الْأَمْرُ الَّذِي كَانَ يُشَكِّكُهَا فِي حُبِّهِ وَإِخْلَاصِهِ .

وَمَرَّتْ كُلُّ تِلْكَ الْأَفْكَارِ بِخَاطِرِ نَانْسِي مِنْ لَحْظَةٍ رَوَّيَتْهَا غُودْفري مِنْ بَعِيدٍ ، وَحَتَّى وَصُولَهَا إِلَى بَابِ الْبَيْتِ الْأَحْمَرِ . وَخَرَجَ الشَّرِيفُ كَاسَ لِحْجَةٍ وَالِدِهَا السَّيِّدَ لَامِيتَرَ ، كَمَا انْتَبَرَى غُودْفري لِإِنْزَالِهَا بِسُرْعَةٍ عَنْ ظَهْرِ الْجَوَادِ ، لِأَنَّ الْمَطَرَ كَانَ قَدْ عَاوَدَ السَّقُوطَ . وَهَرَعَ الْجَمِيعُ إِلَى دَاخِلِ الدَّارِ ، وَالتَّفُّوا حَوْلَ مَائِدَةِ الشَّاي ، ثُمَّ صَعِدُوا إِلَى عُرْفِ النَّوْمِ لِتَغْيِيرِ مَلَابِسِهِمْ ، اسْتَعْدَادًا لِحَفْلِ الْعِشَاءِ وَالرَّقْصِ فِي الْمَسَاءِ .

وَتَقَدَّمَتِ السَّيِّدَةُ كِمْبِلَ لِاصْطِحَابِ السَّيِّدِ لَامِيتَرَ وَابْنَتِيهِ إِلَى الطَّابِقِ الْعُلَوِيِّ ، حَيْثُ عُرْفَةُ النَّوْمِ الْمُسَمَّاةُ بِالْحُجْرَةِ الزَّرْقَاءِ ، الَّتِي

الفصل التاسع الحفل في منزل الشريف كاس

عِنْدَ ظَهْرِ آخِرِ أَيَّامِ شَهْرِ دِيَسَمْبَرِ ، أَيُّ قَبْلَ حُلُولِ مَوْعِدِ حَفْلِ رَأْسِ السَّنَةِ بَعْدَ سَاعَاتٍ ، كَانَتْ الْآنِسَةُ نَانْسِي وَالدَّهْا السَّيِّدُ لَامِيتَرَ يَقْطَعَانِ الْمَسَافَةَ مِنْ مَنْزِلِهِمَا إِلَى الْبَيْتِ الْأَحْمَرِ فِي رَافِلُو عَلَى ظَهْرِ حِصَانٍ . كَانَتْ الْفَتَاةُ تَجْلِسُ عَلَى سَرَجٍ مُرِيحٍ خَلْفَ وَالِدِهَا الطَّوِيلِ الْقَامَةِ ، وَقَدْ أَحَاطَتْ خَصْرَهُ بِذِرَاعَيْهَا ، وَأَمْسَكَتْ بِهِ جِيدًا ، وَرَاحَتْ تَنْطَلِعُ طَوَالَ الطَّرِيقِ إِلَى الْحَفْرِ وَالْبِرْكِ الْمَغْطَاةِ بِالثَّلُوجِ . وَكَانَتْ نَانْسِي تَبْدُو جَمِيلَةً رَائِعَةً لِلْغَايَةِ فِي سِتْرَةِ الرُّكُوبِ ، وَمَا إِنَّ رَأَاهَا غُودْفري تَقْتَرِبُ حَتَّى خَفَقَ قَلْبُهُ ، وَتَقَدَّمَ لِمُسَاعَدَتِهَا عَلَى النُّزُولِ عِنْدَ الْبَابِ . غَيْرَ أَنَّ نَانْسِي كَانَتْ تَتَمَنَّى فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَوْ أَنَّ أُخْتَهَا بَرِيسِيلا ، الَّتِي كَانَتْ تَسِيرُ وَرَاءَهَا مَعَ خَادِمَتِهَا ، قَدْ سَبَقَتْهَا إِلَى الْوُصُولِ ، حَتَّى يُشْغَلَ غُودْفري بِإِنْزَالِهَا أَوَّلًا ، وَيَتْرَكَهَا هِيَ لِحَالِ

كَانَتْ حَقِيَّةً مَلَابِسُهُمْ قَدْ سَبَقَتْهُمْ إِلَيْهَا مَعَ أَحَدِ الْخَدَمِ فِي الصَّبَاحِ . وَكَانَ الْمَنْزِلُ غَاصًّا بِالسَّيِّدَاتِ وَالْفَتَيَاتِ اللَّائِي يَرْتَدِينَ مَلَابِسَ السُّهْرَةِ ، وَكَانَتْ هُنَاكَ سِتُّ مِنْهُنَّ فِي الْحَجَرَةِ الزَّرْقَاءِ وَحَدَّهَا .

عَلَى أَنَّ ثَلَاثًا مِنْهُنَّ غَادَرْنَهَا عِنْدَ دُخُولِ نَانْسِي إِلَيْهَا ، وَلَمْ تَبَقْ فِيهَا سِوَى السَّيِّدَةِ أَوْسُغُودَ ، عَمَّةِ نَانْسِي ، وَأَنْسَتَيْنِ مِنَ الضُّيُوفِ ، هُمَا ابْنَتَا السَّيِّدِ عَن ، لِیُسَاعِدَنَّ نَانْسِي فِي ارْتِدَائِ مَلَابِسِهَا . كَانَتْ هَاتَانِ الْآنِسَتَانِ قَدْ قَدِمَتَا مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَكَانَتَا مَشْغُوفَتَيْنِ بِمُشَاهَدَةِ نَانْسِي لَامِيترَ ، الْفَتَاةِ الرَّيْفِيَّةِ الْجَمِيلَةِ ، وَمُلَاحَظَةِ سُلُوكِهَا بَعِيْنِ نَاقِدَةٍ ؛ لَكِنَّهُمَا لَمْ تَجِدَا عَيِّبًا فِي شَخْصِهَا أَوْ مَلَابِسِهَا . وَمَا إِنْ أَتَمَّتْ نَانْسِي لِبْسَهَا ، حَتَّى تَمَلَّكَهَا الْإِعْجَابُ الشَّدِيدُ بِجَمَالِهَا الْهَادِي ، وَخَفَةِ ظِلِّهَا الْجَذَابَةِ ، وَتَوْبَهَا الْحَرِيرِيَّ ، وَعِقْدِهَا الثَّمِينِ ، وَقُرْطِهَا الْجَمِيلِ .

وَأَخِيرًا وَصَلَتْ بَرِيْسِيلا لَامِيترَ وَقَدْ احْمَرَّ وَجْهُهَا لِمَا بَدَلَتْهُ مِنْ جَهْدٍ أَثْنَاءَ الرُّحْلَةِ . وَسَاعَدَتْهَا أَخْتُهَا نَانْسِي عَلَى ارْتِدَائِ ثَوْبٍ مِثْلِ ثَوْبِهَا تَمَامًا ، غَيْرَ أَنَّ بَرِيْسِيلا لَمْ تَبْدُ جَمِيلَةً رَاضِيَةً كَأَخْتُهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تَفْقِدْ مَرَحَهَا ، وَلَمْ تَكُنْ قَطُّ مَهْمُومَةً . لَقَدْ كَانَتْ دَائِمَةً الْقَوْلَ بِأَنَّهَا غَيْرُ رَاضِيَةٍ فِي الزَّوْاجِ .



إِلَيْهَا ذَلِكَ بَعْدُ ، وَلَكِنِّي أَرْجُو أَنْ تُوَافِقَ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ سِوَايَ قَدْ
سَبَقَنِي إِلَيْهَا .»

قَالَتْ نَانْسِي بِهْدُوِّ وَرَقَّةٍ : « لَا ، لَمْ أُرْتَبِطْ بَعْدُ بِأَحَدٍ .»

قَالَ غُودْفَرِي : « إِذَا أَرْجُو أَلَا يَكُونُ لَدَيْكَ اعْتِرَاضٌ عَلَى الرَّقْصِ
مَعِي .»

أَجَابَتْ بِفُتُورٍ : « لَيْسَ ثَمَّةَ اعْتِرَاضٍ .»

وَالْتَفَّ الْجَمِيعُ حَوْلَ الْمَائِدَةِ . وَكَانَ تَنَاوُلُ الطَّعَامِ مَصْحُوبًا
بِأَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ وَمُدَاعِبَاتٍ وَإِعَازَاتٍ بَرِيئَةٍ ، لَا تَنُمُّ عَنْ الْحَقْدِ
وَلَا تَتَسِمُ بِسُوءِ الْقَصْدِ ، وَإِنَّمَا تَعُمِدُ إِلَى إِذْكَاءِ رُوحِ الْمَرْحِ وَالْفُكَاهَةِ
فَحَسْبُ . وَأَخِيرًا انْطَلَقَتْ فِي الْمَكَانِ نَعَمَاتُ شَجِيَّةٍ مِنْ كَمَانٍ عَازِفٍ
عَجُوزٍ . وَبَعْدَ أَنْ انْتَهَى الْعَازِفُ الْعَجُوزُ مِنْ عَزْفِهِ لِلْجَمَاعَةِ ، قَادَهُمْ
إِلَى حُجْرَةِ الاسْتِقْبَالِ الْبَيْضَاءِ الْكَبِيرَةِ .

وَكَانَتْ الْأَضْوَاءُ الْمُتَنَوِّعَةُ الْخَلَابَةُ تَسْطَعُ بَيْنَ الْأَغْصَانِ الْخَضِرَاءِ
الْجَمِيلَةِ ، وَتَنْعَكِسُ فِي الْمَرَايَا الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَغْطِي الْحَوَائِطَ .
وَاصْطَحَبَ الرِّجَالُ زَوْجَاتِهِمْ ، وَالشَّبَابُ صَدِيقَاتِهِمْ مِنَ الْفَتَيَاتِ ،
وَتَقَدَّمَ الْجَمِيعُ إِلَى حَلْبَةِ الرَّقْصِ لِلْقِيَامِ بِالرَّقْصَةِ الْأُولَى ، وَعَلَى

وَعِنْدَمَا دَخَلَتْ بَرِيسِيلا مَعَ أُخْتِهَا الرُّدْهَةَ الْفَسِيحَةَ الْمُرْدَحِمَةَ
بِالنَّاسِ ، وَالْمُزَيَّنَةَ بِالْأَغْصَانِ الْخَضِرَاءِ الْجَمِيلَةِ ، تَقَدَّمَ غُودْفَرِي نَحْوَ
الْآنِسَةِ نَانْسِي لِيَصْحَبَهَا إِلَى مَقْعَدِ بِجَوَارِهِ ، عَلَى حِينِ جَلَسَتْ
بَرِيسِيلا بَيْنَ أَبِيهَا وَالشَّرِيفِ كَاسٍ . غَيْرَ أَنَّ غُودْفَرِي كَانَ يَتَصَنَّعُ
عَدَمَ الْإِكْتِرَافِ ، وَلَا يُرْسِلُ بِالنَّظَرَاتِ الْوَالِهَةِ إِلَى نَانْسِي إِلَّا لِمَامًا ،
مَعَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَغِيظُ وَالِدَهُ الشَّرِيفَ ، الَّذِي كَانَ يَتَعَمَّدُ إِطْرَاءَ
جَمَالِهَا أَمَامَ وَالِدِهَا السَّيِّدِ لَامِيَتِرَ ، بِصَوْتٍ عَالٍ يَسْمَعُهُ جَمِيعُ
الْحَاضِرِينَ . وَلَقَدْ سُرَّ لَامِيَتِرُ مِنْ إِطْرَاءِ جَمَالِ ابْنَتِهِ ، لَكِنَّهُ كَانَ
لَا يَرْغَبُ فِي زَوَاجِهَا بِغُودْفَرِي ، وَلَا فِي مُصَاهَرَةِ عَائِلَةِ الشَّرِيفِ
كَاسٍ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِالذَّاتِ . وَكَانَ يَرَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ حَدُوثِ
تَغْيِيرَاتٍ كَثِيرَةٍ قَبْلَ أَنْ يُوَافِقَ عَلَى مِثْلِ هَذَا الزَّوَاجِ .

وَمَالَ الشَّرِيفُ كَاسٍ بِمَقْعَدِهِ إِلَى الْخَلْفِ ، وَأَخَذَ يُفْهَقُهُ فِي
مَرْحٍ ، وَهُوَ يَتَطَلَّعُ إِلَى غُودْفَرِي قَائِلًا : « لَا شَكَّ أَنَّ ابْنِي غُودْفَرِي
قَدْ حَجَزَ الْآنِسَةَ نَانْسِي لِلرَّقْصَةِ الْأُولَى هَذَا الْمَسَاءَ ، أَلَيْسَ
كَذَلِكَ يَا غُودْفَرِي ؟ »

وَشَعَرَ غُودْفَرِي بِالْحَرَجِ مِنْ كَلِمَاتِ وَالِدِهِ ذَاتِ الْمَغْزَى ، وَأَخَذَ
يَتَخَوَّفُ مِنْ اسْتِمْرَارِهِ فِي الْكَلَامِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ
أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا سِوَى النَّظَرِ فِي حَسْرَةٍ إِلَى نَانْسِي قَائِلًا : « لَمْ أَطْلُبْ

رَأْسُهُمُ الشَّرِيفُ مَعَ السَّيِّدَةِ ثَوْرَبُ ، وَالسَّيِّدُ ثَوْرَبُ مَعَ السَّيِّدَةِ أَوْسُغُودُ .
وَتَقْدَمُ غُودْفَرِي مَجْمُوعَةُ الشُّبَابِ فِي صُحْبَةِ الْآنِسَةِ نَانْسِي لَامِيَتِر .
أَمَّا أَهْلُ الْقَرْيَةِ الْمُتَوَاضِعُونَ ، وَهُمْ الَّذِينَ كَانَ يُسَمَّحُ لَهُمْ بِمُشَاهَدَةِ
الرَّقْصِ وَسَمَاعِ الْمَوْسِيقَى فَحَسَبُ ، فَقَدْ أَخَذُوا يَرْقُبُونَ الْمَشْهَدَ بِلَذَّةٍ
فَائِقَةٍ ، كَمَا أَخَذُوا يَنْتَقِدُونَ مَلَابِسَ الرَّاقِصِينَ وَالرَّاقِصَاتِ ، وَيُعْلَقُونَ
عَلَيْهِمْ بِأَقْوَالٍ مُخْتَلِفَةٍ .

قَالَ أَحَدُ الْمُشَاهِدِينَ : « إِنَّ الْعُمْدَةَ رَشِيقٌ إِلَى حَدٍّ مَا عَلَى الرَّغْمِ
مِنْ ثِقَلِ وَزْنِهِ ، وَلَكِنَّ السَّيِّدَ لَامِيَتِرَ يَفْضُلُ الرِّجَالَ جَمِيعًا بِقَامَتِهِ
الْمَدِيدَةِ . إِنَّهُ يَرْفَعُ رَأْسَهُ كَجُنْدِيٍّ ، وَإِنْ سَاقِيهِ لَبْدِيعَتَانِ ، كَمَا أَنَّ
لَيْسَ مَتَرَهُلًا مِثْلَ مُعْظَمِ الرِّجَالِ الطَّاعِنِينَ فِي السَّنِّ . أَمَّا السَّيِّدُ ثَوْرَبُ
فَهُوَ نَشِيطٌ إِلَى حَدٍّ مَا ، وَلَكِنَّ سَاقِيَهُ لَيْسَتَا عَلَى مَا يُرَامُ ، فَهُمَا
لَيْسَتَا مُسْتَوِيَّتَيْنِ تَمَامًا ! »

رَدَّ بِنُ وَنَثْرُوبُ الَّذِي كَانَ مُمَسِّكًا بِيَدِ ابْنِهِ آرون : « إِذَا مَا
تَحَدَّثْتَ عَنِ الرَّشَاقَةِ وَالنَّشَاطِ ، فَانْظُرْ إِلَى السَّيِّدَةِ أَوْسُغُودِ الَّتِي تَعْدُو
بِخُطَوَاتٍ سَرِيعَةٍ رَشِيقَةٍ . إِنَّهَا تَبْدُو وَكَأَنَّهَا لَمْ تَتَقَدَّمْ فِي السَّنِّ يَوْمًا
وَاحِدًا عَنِ الْعَامِ الْمَاضِي ، فَهِيَ أَجْمَلُ امْرَأَةٍ هُنَا . وَهَا هُوَ ذَا ابْنُ
الشَّرِيفِ يُرَاقِصُ الْآنِسَةَ نَانْسِي ! يَا لَهَا مِنْ فِتَاةٍ رَائِعَةٍ ! إِنَّهَا أَجْمَلُ
وَأَبْهَى مَنْ رَأَتْ عَيْنَايَ مِنَ الْفَتَيَاتِ . إِنَّهَا خَيْرٌ مَنْ تَصْلَحُ لِأَنْ تَكُونَ

سَيِّدَةَ هَذَا الْبَيْتِ ، وَأَغْلَبُ ظَنِّي أَنَّهَا سَتَكُونُ كَذَلِكَ عَمَّا قَرِيبٍ ،
فَهِِيَ خَيْرٌ مَنْ تَصْلَحُ لِأَنْ تَكُونَ زَوْجَةً لِلْسَّيِّدِ غُودْفَرِي . »

وَتَدَخَلَ أَحَدُ الرِّجَالِ فِي الْحَدِيثِ قَائِلًا : « أَرَى أَنَّ السَّيِّدَ
غُودْفَرِي لَيْسَ عَاقِلًا ، وَإِلَّا فَلِمَاذَا يَرْضَى بِأَنْ يَتَحَكَّمَ فِيهِ أَخُوهُ
الْمُسْتَهْتَرُ ، الَّذِي قَتَلَ جَوَادَهُ الرَّائِعَ أَخِيرًا ثُمَّ اخْتَفَى ! وَقَدْ لَاحَظْتُ أَنَّهُ
كَانَ مُغْرَمًا بِنَانْسِي مُلِحًا فِي تَعَقُّبِهَا ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ ذَلِكَ كُلُّهُ أَنْ
تَلَاشَى فَجَاءَ ، وَفَتَرَتْ مَشَاعِرُهُ نَحْوَهَا ، أَلَيْسَ هَذَا رَجُلًا شَآذَ الْفِكْرِ
وَالطَّبَاعِ ؟ ! »

أَجَابَ بِنُ وَنَثْرُوبُ : « مِنَ الْجَائِزِ أَنَّ الْآنِسَةَ نَانْسِي لَمْ تُبَادِلْهُ
الْمَشَاعِرَ نَفْسَهَا ، عَلَى أَنَّي أَظُنُّ أَنَّهَا بَدَأَتْ تَمِيلُ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ يَبْدُو
سَعِيدًا هَذِهِ اللَّيْلَةَ ، كَمَا أَنَّ قَدْ اصْطَحَبَهَا بَعِيدًا ، لِيَجْلِسَا مُنْفَرِدَيْنِ . »

كَانَتْ نَانْسِي ، فِي الْوَاقِعِ ، قَدْ انْتَحَتْ رُكْنًا قَصِيًّا لِاصْلَاحِ
طَرَفِ ثَوْبِهَا الَّذِي وَطَّئَهُ الشَّرِيفُ كَاسُ ، أَثْنَاءَ الرَّقْصِ فَقَطَعَهُ . أَمَّا
غُودْفَرِي فَقَدْ انْتَهَزَ تِلْكَ الْفُرْصَةَ ؛ لِيَأْخُذَ مَحْبُوبَتَهُ بَعِيدًا إِلَى حُجْرَةٍ
جُلُوسٍ صَغِيرَةٍ ، صَفَّتْ فِيهَا الْمَنَاضِدُ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْعِبِ الْوَرَقِ .

وَمَا إِنَّ جَلَسَتْ نَانْسِي فِي تِلْكَ الْحُجْرَةِ ، حَتَّى بَادَرَتْ غُودْفَرِي
قَائِلَةً : « أَشْكُرُكَ يَا سَيِّدِي ، وَلَا أَحِبُّ أَنْ أَكْلِفَكَ مَشَقَّةَ أُخْرَى .

يُؤْسِفُنِي أَنَّكَ قَدْ صَادَقْتَ اللَّيْلَةَ شَرِيكَةً سَيِّئَةَ الْحِظِّ فِي الرَّقْصِ !

رَدَّ غودفري مُصْطَنِعًا الْغَضَبَ : « تَعْنِينَ أَنَّكَ آسِيفَةٌ لِأَنَّكَ رَقَصْتَ
مَعِي ؟ »

« لَمْ أَعْنِ ذَلِكَ يَا سَيِّدِي ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا يَنْعَمُ أَحَدُ الرِّجَالِ بِمَتَعَ
وَمَسَرَّاتٍ كَثِيرَةٍ ، فَإِنَّ رَقْصَةً وَاحِدَةً لَا تَهْمُهُ . »

« أَنْتِ تَعْرِفِينَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ صَاحِبًا ، وَأَنَّ رَقْصَةً وَاحِدَةً مَعَكَ
تَلْذُّ لِي أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ مَتَعِ الْأَرْضِ . »

وَدَهَشَتْ نَانْسِي لِذَلِكَ الْقَوْلِ ، فَلَقَدْ كَانَتْ الْمَرَّةَ الْأُولَى الَّتِي
يَعْرُبُ فِيهَا غودفري عَنْ مَشَاعِرِهِ بِمِثْلِ هَذِهِ الصَّرَاحَةِ ، وَلَكِنَّهَا
أَخْفَتْ دَهْشَتَهَا وَقَالَتْ بِلَهْجَةٍ جَدِيدَةٍ : « الْوَاقِعُ أَنَّنِي لَا أَعْرِفُ هَذَا
يَا سَيِّدُ غودفري ، كَمَا أَنَّ لَدَيَّ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا يَجْعَلُنِي أَفْكَرَ تَفْكِيرًا
مُخْتَلِفًا ، وَحَتَّى إِنْ كَانَ زَعْمُكَ صَادِقًا ، فَإِنَّهُ لَا يَهْمُنِي التَّأَكُّدُ
مِنْهُ . »

« أَلَنْ تَغْفِرِي لِي إِذَا يَا نَانْسِي ، حَتَّى وَلَوْ تَغَيَّرْتُ وَأَقْلَعْتُ عَمَّا
تَكْرَهِيهِ مِنْ تَصَرُّفَاتِي ؟ »

تَطْلَعَتْ إِلَيْهِ قَائِلَةً : « لَا شَكَّ أَنَّنِي أَسْرُ لِرُؤْيَا كُلِّ تَغْيِيرٍ طَيِّبٍ

يَحْدُثُ لِأَيِّ شَخْصٍ ، غَيْرَ أَنَّنِي أَفْضَلُ الشَّخْصِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى
تَغْيِيرٍ . »

أَجَابَ غودفري عَلَى الْفَوْرِ : « أَنْتِ قَاسِيَةُ الْقَلْبِ جِدًّا يَا نَانْسِي !
كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّكَ سَوْفَ تُشَجِّعِينِي عَلَى أَنْ أَكُونَ رَجُلًا أَفْضَلَ ، غَيْرَ
أَنَّكَ مَتَحَجِّرَةُ الشُّعُورِ ، كَمَا أَنَّ حِظِّي تَعِسٌ لِلْغَايَةِ ! »

كَادَتْ نَانْسِي تَغْضَبُ لِذَلِكَ الْقَوْلِ ، وَلَكِنْ بَرِيسِيلا جَاءَتْ فِي
تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَهِيَ تُنَادِي ضَاحِكَةً : « هَيَّا تَعَالِي الْآنَ يَا طِفْلَتِي
الْعَزِيزَةَ ، وَدَعِينِي أَلْقِي نَظْرَةً عَلَى ثُوبِكَ . »

قَالَ غودفري لِبَرِيسِيلا : « أَيْبَغِي عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ الْآنَ ؟ »
أَجَابَتْ نَانْسِي وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى ذِيْلِ ثُوبِهَا : « ذَلِكَ أَمْرٌ مَتْرُوكٌ
لَكَ . »

قَالَ غودفري فِي إِصْرَارٍ : « إِذَا فَأَنَا أَفْضَلُ الْبَقَاءِ . »

قَالَ غودفري ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُطِيقُ مُفَارَقَةَ الْفَتَاةِ ، وَعَزَمَ عَلَى
أَنْ يَنْعَمَ بِالْبَقَاءِ إِلَى جَوَارِهَا أَطْوَلَ وَقْتٍ مُمَكِّنٍ ، عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا
أَبْدَتْهُ مِنْ مَشَاعِرِ فَاتِرَةٍ نَحْوِهِ .

وَعَيْنِيهِ ، لَتَقْدَمَ نَفْسَهَا لِلشَّرِيفِ عَلَى أَنَّهَا زَوْجَةُ ابْنِهِ الْأَكْبَرِ . كَانَتْ مُوَلِي تَعْرِفُ تَمَامًا أَنَّ إِهْمَالَ زَوْجِهَا لَهَا لَمْ يَكُنْ سَبَبَ تَعَاسَتِهَا ، وَلَكِنَّهُ الْأَقْيُونُ اللَّعِينُ الَّذِي اسْتَسَلَمَتْ لِعِبُودِيَّتِهِ ، بَيَّنَّ أَنَّهَا تَنَاسَتْ تِلْكَ الْحَقِيقَةَ فِي حَقِّهَا وَعَظَمِهَا عَلَى غُودْفَرِي . لَقَدْ كَانَ زَوْجُهَا شَابًا غَنِيًّا وَوَارثًا مُتَوَقِّعًا لِأَبِيهِ الثَّرِيِّ ، وَكَانَتْ تَطْمَحُ إِلَى أَنْ تَكُونَ لَرِيَّةً أَيْضًا إِذَا مَا اعْتَرَفَ الشَّرِيفُ بِزَوَاجِهَا بِإِبْنِهِ .

الفصل العاشر

زائرة غريبة لكوخ سايلاس

بَدَأَتْ مُوَلِي رَحَلَتَهَا مُبَكَّرًا ، وَكَانَتْ تَسِيرُ بِبُطْءٍ بِسَبَبِ تَسَاقُطِ الْبَرْدِ وَخَوْفِهَا مِنَ الظَّلَامِ الْكَثِيفِ الَّذِي يَلْفُ الطَّرِيقَ . وَدَقَّتِ السَّاعَةُ السَّابِعَةَ مَسَاءً حِينَمَا اقْتَرَبَتْ مِنْ رَافِيلُو ، لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ بِالتَّحْدِيدِ الْمَسَافَةَ الَّتِي تَفْصِلُهَا عَنِ الْبَيْتِ الْأَحْمَرِ ، وَكَانَتْ فِي حَاجَةٍ إِلَى شَيْءٍ يُرِيحُهَا وَيُشَجِّعُهَا عَلَى مُوَاصَلَةِ الْمَسِيرِ ، وَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ شَيْئًا يَعِينُهَا فِي الْمَوَاقِفِ الصَّعْبَةِ سِوَى الْأَقْيُونِ ، الَّذِي كَانَتْ تَحْتَفِظُ بِكَمِيَّةٍ ضَخِيمَةٍ مِنْهُ فِي قَارُورَةٍ دَاخِلَ جَيْبِهَا . وَلَمْ تَلْبِثْ أَنْ أُخْرِجَتْ الْقَارُورَةُ الصَّغِيرَةُ ، وَأَفْرَعَتْ مُحْتَوَاهَا فِي جَوْفِهَا ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ خَوْفِهَا عَلَى الطُّفْلَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُهَا ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ سَيْرَهَا وَسَطَ الرِّيحِ الْبَارِدَةِ ، الَّتِي أَخَذَتْ تَهْبُ بِشِدَّةٍ بَعْدَ أَنْ تَوَقَّفَ الْبَرْدُ عَنِ النُّزُولِ ، غَيْرَ أَنَّهَا كَانَتْ تَسِيرُ كَالنَّائِمَةِ ، أَوْ كَالْحَالِمَةِ .

وَسَرَّعَانَ مَا أَحْدَثَ الْمَخْدَرُ أَثَرَهُ الْقَوِيُّ ، لَا سِيَّمَا وَأَنَّ مَفْعُولَهُ

بَيْنَمَا كَانَ غُودْفَرِي يَتَنَاسَى مَتَاعِيَهُ بِالْقُرْبِ مِنْ نَائِسِي ، كَانَتْ زَوْجَتُهُ مُوَلِي تَسِيرُ بِخُطَى قَلِقَةٍ بِطِيعَةٍ عَلَى الطَّرِيقِ الْمَغْطَى بِالثَّلْجِ ، مُتَّجِهَةً إِلَى رَافِيلُو حَامِلَةً مَعَهَا طِفْلَتَهَا . كَانَتْ رَحَلَتَهَا تِلْكَ إِلَى الْقَرْيَةِ فِي لَيْلَةٍ رَأْسِ السَّنَةِ انْتِقَامًا مِنْ غُودْفَرِي ، دَبَّرَتْهُ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَهَا، فِي لَحْظَةٍ غَضَبٍ ، بِأَنَّهُ يُفَضِّلُ الْمَوْتَ عَلَى أَنْ يُعْلِنَ لِلنَّاسِ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ . كَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّ حَفْلًا كَبِيرًا سَيُقَامُ لِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ فِي مَنْزِلِ الشَّرِيفِ كَاسِ ، وَأَنَّ زَوْجَهَا سَوْفَ يَمْرَحُ وَيَصْحَبُ فِي هَذَا الْحَفْلِ ، غَيْرَ مُبَالٍ بِهَا أَوْ مُفَكِّرٍ فِيهَا . وَلَقَدْ صَمَّمَتْ عَلَى الذَّهَابِ إِلَى الْبَيْتِ الْأَحْمَرِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْحَافِلَةِ السَّعِيدَةِ لِإِفْسَادِ سُرُورِهِ وَمُتَعَتِهِ .

كَانَتْ عَازِمَةً عَلَى أَنْ تَدْخُلَ الْبَيْتَ بِمَلَابِسِهَا الْقَدَرَةِ الْمَمْزَقَةِ ، حَامِلَةً عَلَى ذِرَاعَيْهَا ابْنَةَ غُودْفَرِي الَّتِي وَرِثَتْ عَنْ أَبِيهَا لَوْنَ شَعْرِه



اَقْتَرَنَ بِمَا كَانَتْ تُعَانِيهِ مِنَ الْبَرْدِ وَالتَّعَبِ ، فَشَعَرَتْ بِرَغْبَةٍ شَدِيدَةٍ فِي النَّوْمِ . وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ اسْتَلَقْتَ عَلَى أَدِيمِ الثَّلْجِ النَّاعِمِ ، مُسْنِدَةً رَأْسَهَا إِلَى شَجَرَةٍ مُنْخَفِضَةٍ ، غَيْرَ عَابِئَةٍ بِمَا قَدْ يَحْدُثُ لِطِفْلَتِهَا الصَّغِيرَةِ الْبَرِيئَةِ .

وَمَا إِنْ اسْتَعْرَقَتْ فِي النَّوْمِ ، حَتَّى سَقَطَتِ الطِّفْلَةُ مِنْ بَيْنِ ذِرَاعَيْهَا . وَصَاحَتِ الطِّفْلَةُ مُنَادِيَةً أُمُّهَا ، ثُمَّ حَاوَلَتْ الصُّعُودَ إِلَى حِجْرِهَا مَرَّةً أُخْرَى ، وَلَكِنَّهَا تَدَحَّرَجَتْ إِلَى أَسْفَلٍ . وَفَجْأَةً جَذَبَ نَظَرَهَا ضَوْءٌ يَلْمَعُ عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ ، فَزَحَفَتْ نَحْوَهُ بَادِيَّ الْأَمْرِ

بِشَغَفِ الطُّفُولَةِ وَقُضُولِهَا ، ثُمَّ نَهَضَتْ وَسَارَتْ فِي اتِّجَاهِهِ بِخُطَوَاتٍ مَتَعَثِّرَةٍ .

كَانَ الضَّوُّ آتِيًا مِنْ نَارِ مَوْقِدَةٍ فِي مِدْفَأَةِ سَايْلَاسَ مَارْتَرٍ ، وَلَمْ تَلْبَثِ الطِّفْلَةُ أَنْ دَلَقَتْ إِلَى دَاخِلِ الْكُوْخِ ، وَسَارَتْ نَحْوَ النَّارِ حَيْثُ الدَّفْءُ الْمُمْتَعُ الْمَرِيحُ . وَلَكَّمَا كَانَتْ مُعْتَادَةً أَنْ تَتْرَكَهَا أُمُّهَا بِمَقَرِّدِهَا لِسَاعَاتٍ طَوَالٍ ، فَقَدْ جَلَسَتْ هُنَاكَ أَمَامَ الْمِدْفَأَةِ عَلَى مِعْطَفِ سَايْلَاسَ ، الَّذِي كَانَ مَبْسُوطًا عَلَى الْأَرْضِ لِيَجِفَّ فِي لَفْحِ النَّيْرَانِ ، وَأَخَذَتْ تُرَاقِبُ اللَّهَبَ فِي تَلَدُّذٍ وَاسْتِمْتَاعٍ . وَمَا إِنْ سَرَى الدَّفْءُ فِي

جَسَدِهَا النَّحِيلَ ، حَتَّى اسْتَلْقَتْ فَوْقَ الْمِعْطَفِ الْقَدِيمِ وَاسْتَغْرَقَتْ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ .

وَلَكِنْ أَيْنَ كَانَ سَائِلَاسُ مَارَنَرٍ حِينَ دَلَفَتْ تِلْكَ الزَّائِرَةُ الْغَرِيبَةَ إِلَى كُوخِهِ فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ الْمُمْطِرِ ؟ كَانَ رَاقِدًا دَاخِلَ الْكُوخِ ، بِلَا وَعْيٍ أَوْ حَرَكَ . فَقَدْ دَابَّ سَائِلَاسُ مُنْذُ أَنْ فَقَدَ مَالَهُ عَلَى مُغَادَرَةِ الْكُوخِ بِضَعِ مَرَّاتٍ كُلِّ يَوْمٍ ، وَالتَّلَفَّتْ حَوْلَهُ عَسَى أَنْ تَحْدُثَ مُعْجِزَةٌ وَيَعْتَرَّ عَلَى كَنْزِهِ الْمَفْقُودِ . وَلَقَدْ أَخْبَرَهُ أَحَدُ جِيرَانِهِ ذَلِكَ الصَّبَاحَ بِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَلْزِمَ كُوخَهُ فِي الْمَسَاءِ ، لِيَسْمَعَ أَجْرَاسَ الْقَرْيَةِ وَهِيَ تُودِّعُ الْعَامَ الْمُنْصَرِمَ وَتَسْتَقْبِلُ الْعَامَ الْجَدِيدَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ يَجْلِبُ لَهُ حَظًّا سَعِيدًا ، وَيُعِيدُ إِلَيْهِ كَنْزَهُ الْمَفْقُودَ . وَلَقَدْ قِيلَ لَهُ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الدُّعَابَةِ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ . غَيْرَ أَنَّ سَائِلَاسَ تَعَلَّقَ بِذَلِكَ الْقَوْلِ ، وَرَاوَدَهُ الْأَمَلُ فِي الْعُثُورِ عَلَى كَنْزِهِ مَرَّةً أُخْرَى ، فَقَامَ بَعْدَ هُبُوطِ الظَّلَامِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ وَفَتَحَ بَابَ الْكُوخِ ، وَتَلَفَّتْ حَوْلَهُ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَرِ سِوَى الثُّلُوجِ الْمَتَسَاقِطَةِ . وَفِي الْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ كَانَ الْبَرْدُ قَدْ تَوَقَّفَ ، فَتَرَكَ بَابَهُ مَفْتُوحًا ، وَعَادَ إِلَى الدَّاخِلِ لِيَسْمَعَ أَجْرَاسَ الْقَرْيَةِ ، لَكِنْ نَوْبَهُ مَرَضِهِ دَاهَمَتْهُ ، فَاسْتَلْقَى بِلَا وَعْيٍ عَلَى الْأَرْضِ . وَمَا إِنَّ أَفَاقَ حَتَّى نَهَضَ لِيُغْلِقَ بَابَهُ ، وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّهُ كَانَ فِي حَالَةِ إِعْمَاءٍ ، وَأَنَّ زَائِرَةَ صَغِيرَةً قَدْ دَلَفَتْ إِلَى كُوخِهِ أَثْنَاءَ النَّوْبَةِ . ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى الْمِدْفَأَةِ حَيْثُ

كَانَتْ النَّيْرَانُ قَدْ خَبَتْ بَعْدَ أَنْ تَحَوَّلَتِ الْأَخْشَابُ إِلَى رَمَادٍ . وَأَنْحَنَى سَائِلَاسُ عَلَى الْمِدْفَأَةِ لِيُذَكِّي النَّارَ الْخَائِيَةَ فَخَطَفَ بَصَرَهُ الضَّعِيفَ جِسْمَ تَلْفُهُ ظِلَالٍ صَفْرَاءَ بَاهِتَةٍ . وَخَفَقَ قَلْبُهُ بِشِدَّةٍ إِذْ ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ عَثَرَ عَلَى ذَهَبِهِ الْمَفْقُودِ ، وَظَلَّ دَقَائِقَ بِلَا حَرَكَ وَهُوَ لَا يَقْوَى عَلَى مَدِّ يَدِهِ لِلإِمْسَاكِ بِذَلِكَ الْجِسْمِ . وَأَخِيرًا أَنْحَنَى إِلَى الْأَمَامِ وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ الْأَصْفَرِ اللَّوْنِ ، وَلَكِنْ بَدَلًا مِنْ أَنْ تُمْسِكَ يَدُهُ بِالنُّقُودِ الذَّهَبِيَّةِ ، أَمْسَكَتْ بِشَعْرِ الْفَتَاةِ الدَّافِئِ ذِي التَّجَعُّدَاتِ الذَّهَبِيَّةِ الصَّفْرَاءِ . وَفِي دَهْشَةٍ بِالْغَةِ رَكَعَ سَائِلَاسُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَأَنْحَنَى رَأْسَهُ لِيَتَفَحَّصَ ذَلِكَ الشَّيْءَ الْعَجِيبَ ، وَسَرَّعَانَ مَا اكْتَشَفَ أَنَّهَا طِفْلةٌ صَغِيرَةٌ جَمِيلَةٌ مُسْتَغْرَقَةٌ فِي النَّوْمِ ، وَأَغْمَضَ سَائِلَاسُ عَيْنَيْهِ ثُمَّ فَتَحَهُمَا جِدًّا . أَوْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حُلْمًا ، أَمْ أَنَّهَا أُخْتُهُ الصَّغِيرَةُ الْحَبِيبَةُ ، الَّتِي مَاتَتْ مُنْذُ كَانَ طِفْلًا ، قَدْ عَادَتْ إِلَيْهِ الْآنَ ؟ وَقَامَ سَائِلَاسُ عَلَى الْقَوْرِ بِالْقَاءِ بَعْضَ الْأُورَاقِ الْجَافَةِ فِي الْمِدْفَأَةِ . وَعَلَى ضَوْءِ النَّيْرَانِ الْمُتَصَاعِدَةِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَبَيَّنَ بِوُضُوحٍ شَكْلَ الطِّفْلةِ النَّائِمَةِ فِي مَلَابِسِهَا الْقَدِيمَةِ الْمُمَرَّقَةِ . لَقَدْ كَانَتْ تُشَبِّهُ تَمَامًا أُخْتَهُ الَّتِي مَاتَتْ مُنْذُ سِنَوَاتٍ طَوَالٍ !

وَاسْتَلْقَى سَائِلَاسُ فِي كُرْسِيِّهِ وَقَدْ خَارَتْ قُوَاهُ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالْانْفِعَالِ . كَيْفَ دَخَلَتْ هَذِهِ الطِّفْلةُ كُوخَهُ دُونَ أَنْ يَرَاهَا ؟

وَتَوَارَدَتْ إِلَى خَاطِرِهِ صُورَةُ مَنْزِلِهِ الْقَدِيمِ وَصُورَ مُتَتَالِيَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ
الْأُولَى فِي لَانْتِرَن يَارْدَ . وَانْتَابَهُ إِحْسَاسٌ ، وَكَأَنَّهُ فِي حُلْمٍ ، بِأَنَّ هَذِهِ
الطُّفْلَةَ رِسَالَةٌ بَعَثَتْ بِهَا إِلَيْهِ السَّمَاءُ ، وَعِنْدَيْدِ اجْتِنَاحِهِ شُعُورَ جَارِفٍ
بِالْحَنَانِ الْبَالِغِ لَمْ يُحِسْ بِمِثْلِهِ قَطُّ مِنْ قَبْلُ .

وَلَمْ تَلْبَثِ الطُّفْلَةُ أَنْ اسْتَيْقَظَتْ وَشَرَعَتْ فِي الْبُكَاءِ ، وَرَفَعَهَا فِي
رَفْقٍ ، وَأَجْلَسَهَا عَلَى رُكْبَتِهِ . وَأَحَاطَتْ الطُّفْلَةُ عُنْقَهُ بِذِرَاعَيْهَا ، ثُمَّ
أَخَذَتْ تَبْكِي وَتَصْرُخُ فِي طَلَبِ أُمِّهَا ، وَاحْتَضَنَهَا سَايْلَاسُ فِي رُقَّةٍ
وَحَنَانٍ ، وَأَخَذَ يُحَدِّثُ لَهَا أَصْوَاتًا مُخْتَلِفَةً لِيَصْرِفَهَا عَنِ الْبُكَاءِ .
وَأَنَسَتْ الطُّفْلَةُ إِلَى سَايْلَاسٍ ، وَتَطَلَّعَتْ إِلَيْهِ فِي أَلْفَةٍ بَعَيْنَيْهَا الزَّرْقَاوَيْنِ
الْوَاسِعَتَيْنِ . ثُمَّ نَهَضَ وَأَحْضَرَ طَبَقًا مِنَ الطَّعَامِ وَوَضَعَهُ عَلَى النَّارِ
لِيُدْفِئَهُ قَبْلَ أَنْ يُطْعِمَهُ الطُّفْلَةَ . وَانْصَرَفَتِ الطُّفْلَةُ عَنِ الْبُكَاءِ ، وَنَزَلَتْ
عَنْ حِجْرِهِ وَأَخَذَتْ تَتَمَشَّى فِي الْحُجْرَةِ . وَجَلَسَتْ عَلَى الْأَرْضِ ،
وَأَخَذَتْ تُحَاوِلُ خَلْعَ حِذَائِهَا . وَأَدْرَكَ سَايْلَاسُ أَنَّ الْحِذَاءَ يُؤْلِمُ
قَدَمَيْهَا فَنَزَعَهُ عَنْهُمَا ، عِنْدَيْدِ انْطِلَاقَتِ فِي أَرْجَاءِ الْكُوخِ مَرَحَةً
مُبْتَهَجَةً . وَنَظَرَ سَايْلَاسُ إِلَى الْحِذَاءِ الْمُبْتَلِّ فَعَرَفَ أَنَّهَا سَارَتْ عَلَى
الثَّلْجِ فِي الْخَارِجِ مَسَافَةً طَوِيلَةً قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى الْكُوخِ ، فَحَمَلَهَا
بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى الْفُورِ ، وَخَرَجَ بِهَا إِلَى الطَّرِيقِ . وَمَا إِنَّ رَأَتْ الطُّفْلَةَ
الْثُلُوجَ الْمُتْرَاكِمَةَ حَتَّى صَاحَتْ : « ماما ! ماما ! »

وَأَنَحْنَى سَايْلَاسُ ، فَرَأَى آثَارَ أَقْدَامِ الطُّفْلَةِ عَلَى الثَّلْجِ ، فَراحَ
يَتَّبَعُهَا حَامِلًا الطُّفْلَةَ الَّتِي كَانَتْ تُلَوِّحُ بِيَدَيْهَا وَتَصِيحُ قَائِلَةً : « ماما !
ماما ! » إِلَى أَنْ أَتَى تِلْكَ الشَّجَرَةَ الْمُنْخَفِضَةَ فَوَجَدَ بِجِوَارِهَا جِسْمًا
مُمَدَّدًا كَادَتْ تَغْطِيهِ الثَّلُوجُ !

يَحْمِلُهَا سَايْلَاسُ مَارْتَرُ عَلَى ذِرَاعِهِ ، لَمْ يُرَاوِدْهُ أَذْنَى شَكٍّ فِي أَنَّهَا
طِفْلَتُهُ الْوَحِيدَةُ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَرَهَا مُنْذُ بَضْعَةِ شُهُورٍ .

وَأَدْهَشَ حُضُورُ سَايْلَاسِ الْمَفَاجِئُ السَّيِّدَ ثَوْرَبَ وَالسَّيِّدَ لَامِيَتَرَ
فَتَقَدَّمَا نَحْوَهُ ، وَأَنْضَمَّ إِلَيْهِمَا غُودْفَرِي فِي الْحَالِ ، وَهُوَ يَتَلَهَّفُ عَلَى
سَمَاعِ كُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ سَايْلَاسِ ، وَإِنْ كَانَ يُجَاهِدُ فِي أَنْ
يَبْدُو هَادِئاً النَّفْسِ ، سَاكِنِ الْخَاطِرِ ، يَتَكَتَّمُ مَا يَدُورُ فِي دَاخِلِهِ مِنْ
مَشَاعِرِ الْوَجَلِ وَالْاضْطِرَابِ ، الَّتِي يَكَادُ يَفْضَحُهَا شُحُوبٌ وَجْهِهِ
وَأَرْتِعَاشٌ سَاقِيهِ .

الفصل الحادي عشر

مُفَاجَأَةُ لِيْغُودْفَرِي كَاسَ

انْقَضَ الْعِشَاءُ الْكَبِيرُ فِي الْبَيْتِ الْأَحْمَرِ لَيْلَةَ رَأْسِ السَّنَةِ ، وَتَرَكَ
الْخَدَمُ حُجُرَاتِ الْمَطَابَخِ الْخَلْفِيَّةِ ، وَاتَّوْأُوا لِمُشَاهَدَةِ الرَّقْصِ الَّذِي كَانَ
يَجْرِي فِي رَدْهَةِ الْاسْتِقْبَالِ الْبَيْضَاءِ الْفَسِيحَةِ . كَانَ لِلرَّدْهَةِ بَابَانِ
كَبِيرَانِ ، وَتَرَاحَمَ الْخَدَمُ وَأَهْلُ الْقَرْيَةِ عِنْدَ أَحَدِهِمَا لِمُشَاهَدَةِ رَقْصَةِ
الْجُنْدِيِّ الْمَشْهُورَةِ ، الَّتِي كَانَ يَقُومُ بِهَا أَحَدُ الشَّبَّانِ . وَكَانَ غُودْفَرِي
يَقِفُ عَلَى مَبْعَدَةٍ مِنْ جَمْعَةِ الْمُشَاهِدِينَ لِيَتَحَاشَى الظُّهُورَ بِصُحْبَةِ
نَانْسِي أُمَامَ وَالِدِهِ ؛ كَيْ لَا يُخْرِجَهُ بِنِكَاتِهِ وَضَحِكَاتِهِ الْعَالِيَةِ الرَّئَانَةِ ،
كَمَا كَانَ يَتَرَقَّبُ انْتِهَاءَ رَقْصَةِ الْجُنْدِيِّ بِصَبْرِ نَافِذٍ ، حَتَّى يَتِمَكَّنَ
مِنْ مُرَاقَبَةِ نَانْسِي مَرَّةً أُخْرَى .

وَلَكِنْ مَا كَادَ غُودْفَرِي يَرْفَعُ بَصَرَهُ عَنْ نَانْسِي ، حَتَّى صَدِمَ
بِشَيْءٍ مُذْهِلٍ لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ لَهُ عَلَى بَالٍ ؛ لَقَدْ رَأَى ابْنَتَهُ الطِّفْلَةَ



وَعِنْدَيْهِ تَطَلَّعَتْ جَمِيعُ الْعُيُونِ الَّتِي فِي الْحُجْرَةِ إِلَى سَائِلَاسَ
مَارْتَرِ، وَنَهَضَ الشَّرِيفُ مُتَسَائِلًا فِي غَضَبٍ : « مَا هَذَا ؟! كَيْفَ
دَخَلْتَ إِلَى هُنَا ، وَمَاذَا تُرِيدُ بِحُضُورِكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ ؟ »

أَجَابَ سَائِلَاسَ فِي خَوْفٍ وَأَنْفِعَالٍ : « لَقَدْ أَتَيْتُ بَحْثًا عَنِ
الطَّبِيبِ . إِنِّي أُرِيدُ الطَّبِيبَ فِي الْحَالِ ! »

سَأَلَهُ ثَوْرَبُ : « مَاذَا فِي الْأَمْرِ يَا مَارْتَرُ ؟ إِنَّ الطَّبِيبَ مَعَنَا هُنَا ،
وَلَكِنْ أَخْبِرْنَا لِمَاذَا تُرِيدُهُ ؟ »

أَجَابَ سَائِلَاسَ بِأَنْفَاسٍ مُتَقَطِّعَةٍ ، وَكَانَ غُودْفَرِي يَقْتَرِبُ مِنْهُ
لِدَرَجَةِ الْإِلْتِصَاقِ : « إِنَّهَا امْرَأَةٌ عَلَى وَشَكِّ الْمَوْتِ يَا سَيِّدِي ، وَلَعَلَّهَا
مَاتَتْ بِالْفِعْلِ ! هُنَاكَ بَيْنَ الثَّلُوجِ الْمُتْرَاكِمَةِ ، عِنْدَ الْمَحْجَرِ الْمُوَاكِهِ
لِمَنْزِلِي . »

وَقَفَزَ قَلْبُ غُودْفَرِي بَيْنَ ضُلُوعِهِ ، وَاعْتَرَاهُ دُغْرٌ عَظِيمٌ ؛ كَانَ
يَخْشَى أَلَّا تَكُونَ الْمَرْأَةُ قَدْ مَاتَتْ بِالْفِعْلِ ، وَأَنَّ تَكُونَ فَضِيحَتُهُ أَمَامَ
النَّاسِ قَدْ حَانَ حِينُهَا . وَأَيًّا كَانَ الْأَمْرُ ، فَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الْمَشَاعِرُ
خَبِيثَةً وَشَرِيرَةً بِالنِّسْبَةِ لِرَجُلٍ طَيِّبِ الْقَلْبِ كَغُودْفَرِي كَاسَ .

وَأَمَرَ ثَوْرَبُ سَائِلَاسَ أَنْ يَصْمُتَ حَتَّى لَا يُثِيرَ دُغْرَ السَّيِّدَاتِ ، ثُمَّ

هَمَسَ فِي أُذُنِ الشَّرِيفِ بِأَنَّ امْرَأَةً قَدْ وَجِدَتْ مُلْقَاةً وَسَطَ الثَّلْجِ بَيْنَ
الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ لِاسْتِدْعَاءِ دُكْتُورِ كِمْبَلِ .

غَيْرَ أَنَّ النِّسَاءَ لَمْ يَلْبِثْنَ أَنْ ائْتَدَفَعْنَ نَحْوَ سَائِلَاسَ لِمُشَاهَدَةِ الطُّفْلَةِ
الْجَمِيلَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا ، وَقَدْ تَمَلَّكَهُنَّ الْفُضُولُ لِمَعْرِفَةِ السَّبَبِ ،
الَّذِي أَتَى بِالنِّسَاجِ الَّذِي يَعِيشُ وَحِيدًا ، إِلَى الْبَيْتِ الْأَحْمَرِ فِي مِثْلِ
تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنْ لَيْلَةِ رَأْسِ السَّنَةِ ، حَامِلًا هَذِهِ الطُّفْلَةَ
الْجَدَّابَةَ .

وَفِي نَفْسٍ وَاحِدَةٍ سَأَلَتْ جَمَاعَةٌ مِنْهُنَّ تَتَقَدَّمُهَا نَانْسِي : « مَنْ
تَكُونُ هَذِهِ الطُّفْلَةُ الْجَمِيلَةُ الْمُسْكِينَةُ ؟ »

أَجَابَ غُودْفَرِي فِي عَنَاءٍ بِالْغِ : « لَسْتُ أَدْرِي . إِنَّهَا ابْنَةُ امْرَأَةٍ
فَقِيرَةٍ وَجِدَتْ مُلْقَاةً عَلَى الثَّلْجِ خَارِجَ كُوخِ مَارْتَرِ . »

وَأَتَتْ زَوْجَتَهُ كِمْبَلِ وَقَالَتْ فِي حَنَانٍ وَشَفَقَةٍ : « يَحْسُنُ بِكَ أَنْ
تَتْرَكَ الطُّفْلَةَ هُنَا يَا سَيِّدُ مَارْتَرِ . » وَتَرَدَّدَتْ فِي إِجْلَاسِ الطُّفْلَةِ ذَاتِ
الْمَلَابِيسِ الرُّثَّةِ الْمُتَسِيخَةِ فَوْقَ رِدَائِهَا الْأَنْيَقِ ، وَلَمْ تَلْبِثْ أَنْ نَادَتْ إِحْدَى
الْخَادِمَاتِ لِحَمْلِهَا .

وَهُنَا انْتَبَرَى سَائِلَاسَ مَارْتَرُ قَائِلًا : « لَا ، لَا ، لَنْ أَتْرَكَهَا . لَنْ

أَفْتَرَقَ عَنْهَا . لَقَدْ جَاءَتْ إِلَى كُوخِي ، وَمِنْ حَقِّي أَنْ أَبْقِيَهَا مَعِي .

وَجَاءَ هَذَا الْإِصْرَارُ مِنْ جَانِبِ سَائِلَاسٍ مُفَاجِئًا ، فَهُوَ لَمْ يَفْكَرْ فِي الْإِحْتِفَاطِ بِالطُّفْلَةِ مِنْ قَبْلُ .

وَهَمَسَتْ زَوْجَةُ كِمْبِلَ لِجَارَتِهَا فِي دَهْشَةٍ قَائِلَةً : « هَلْ سَمِعْتَ فِي حَيَاتِكَ شَيْئًا أَغْرَبَ مِنْ هَذَا ؟! »

وَلَمْ يَلْبَثْ دُكْتُورُ كِمْبِلَ أَنْ خَرَجَ مِنْ عُرْقَةِ لَعِبِ الْوَرَقِ ، وَهُوَ يَقُولُ بِصَوْتٍ عَالٍ : « وَالْآنَ أَرْجُو أَنْ تَنْتَحِينَ جَانِبًا أَيْتَهَا السَّيِّدَاتُ . أَحْضِرْ لِي حِذَاءً ثَقِيلًا يَا غُودْفَرِي ، وَأَبْعَثْ بِأَحَدِ الْخَدَمِ فِي الْحَالِ لِأَحْضَارِ السَّيِّدَةِ دُولِي وَنَثْرُوبِ مِنْ بَيْتِهَا ، فَهِيَ أَقْدَرُ مَنْ يُعَاوِنُنَا فِي هَذَا الظَّرْفِ . أَيْنَ زَوْجُهَا السَّيِّدُ بِن ؟ لَقَدْ كَانَ هُنَا قَبْلَ الْعِشَاءِ ، هَلْ ذَهَبَ ؟ »

قَالَ مَارْنَرُ : « أَجَلُ يَا سَيِّدِي لَقَدْ قَابَلْتُهُ عَلَى الطَّرِيقِ عِنْدَ قُدُومِي إِلَى هُنَا ، وَلَكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعِ التَّوَقُّفَ لِإِخْبَارِهِ بِالْأَمْرِ . قُلْتُ لَهُ فَقَطْ إِنَّنِي ذَاهِبٌ لِاسْتِدْعَاءِ الطَّبِيبِ ، فَقَالَ إِنَّ الطَّبِيبَ مَوْجُودٌ بِمَنْزِلِ الْعُمْدَةِ . »

عِنْدَئِذٍ أَخَذَتِ الطُّفْلَةُ تَبْكِي وَتَصْرُخُ فِي طَلَبِ أُمِّهَا ، فَقَالَ

غُودْفَرِي ، وَقَدْ تَزَايَدَ شُعُورُهُ بِالذَّنْبِ : « سَوْفَ أَذْهَبُ فِي الْحَالِ لِأَحْضَارِ السَّيِّدَةِ دُولِي وَنَثْرُوبِ . »

وَأَسْرَعَ غُودْفَرِي بِمُغَادَرَةِ الْمَنْزِلِ حَتَّى لَا يَبْدُوَ لِلْحَاضِرِينَ قَلْقَهُ الشَّدِيدُ ، وَاضْطِرَابُهُ الْعَنِيفُ . وَانْدَفَعَ كَالسَّهْمِ نَحْوَ الْمَحْجَرِ الصَّغِيرِ ، ذَاهِلًا عَنْ أَنْ يَسْتَبْدِلَ بِحِذَائِهِ الْخَفِيفِ حِذَاءً آخَرَ ثَقِيلًا ، يَتَلَاءَمُ وَالسَّيْرَ فَوْقَ الثَّلْجِ الَّذِي كَانَ يَفْتَرِشُ أَرْضَ الطَّرِيقِ .

وَقَالَتْ لَهُ زَوْجَةُ وَنَثْرُوبِ ، الَّتِي كَانَتْ مَدْهُوشَةً لِقَلْقِهِ وَاهْتِمَامِهِ الْبَالِغَيْنِ : « يَحْسُنُ أَنْ تَعُودَ أَدْرَاجَكَ يَا سَيِّدُ غُودْفَرِي ، فَإِنَّ الْحِذَاءَ الْخَفِيفَ الَّذِي تَلْبَسُهُ قَدْ يَتَسَبَّبُ فِي إِصَابَتِكَ بِبَرْدٍ شَدِيدٍ . »

قَالَ غُودْفَرِي فِي إِصْرَارٍ : « لَا ، سَأَذْهَبُ مَعَكَ إِلَى هُنَاكَ . »

وَلَمَّا بَلَغَا كُوخَ مَارْنَرِ ، قَالَ غُودْفَرِي لِزَوْجَةِ وَنَثْرُوبِ : « سَأَنْتَظِرُكَ فِي الْخَارِجِ رَيْثَمَا تَتَبَيَّنِينَ الْأَمْرَ ، فَأَقْدِمُ مَا أَسْتَطِيعُ مِنْ مُسَاعَدَةٍ . »

أَجَابَتْ دُولِي وَهِيَ تَتَجَهَّ نَحْوَ الْبَابِ : « حَسَنٌ ، إِنَّكَ لَطَيِّبُ الْقَلْبِ جِدًّا يَا سَيِّدِي . »

وَأَخَذَ غُودْفَرِي يَسِيرُ جَيِّئَةً وَذَهَابًا ، دُونَ أَنْ يُحْسِنَ بِالثَّلْجِ أَوْ الْبَرْدِ الْقَارِسِ . كَانَ عَقْلُهُ مُشْتَغَلًا بِمَا يَجْرِي دَاخِلَ الْكُوخِ ، وَبِمَا قَدْ

يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ تَأْثِيرٍ عَلَى حَيَاتِهِ الْمُسْتَقْبَلَةِ . كَانَ ضَمِيرُهُ يُحَدِّثُهُ بِأَنْ يَعْتَرِفَ أَمَامَ النَّاسِ بِزَوْجَتِهِ الْبَائِسَةِ ، وَيَأْخُذَ ابْنَتَهُ لِتَتَرَبَّى فِي كَفِّهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ مِنَ الشَّجَاعَةِ مَا يُمَكِّنُهُ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى ذَلِكَ ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ أَنْ يَفْقِدَ نَانْسِي إِلَى الْأَبَدِ . وَفَجْأَةً دَاعِبَهُ الْأَمَلُ فِي الْخِلَاصِ مِنْ مَتَاعِيهِ بِمَوْتِ مُوَلِي ، فَلَعَلَّهُ يَسْتَطِيعُ حِينَئِذٍ أَنْ يَتَزَوَّجَ نَانْسِي ، وَأَنْ يَكْفُلَ لِطِفْلَتِهِ الرَّعَايَةَ بِطَرِيقَةٍ أَوْ بِأُخْرَى !

وَلَمْ يَشْعُرْ غودفري بِمُرُورِ الْوَقْتِ إِلَى أَنْ فُتِحَ بَابُ الْكُوخِ ، وَخَرَجَ الطَّبِيبُ كِمْبَلُ لِيُعْلِنَ أَنَّ الْمَرْأَةَ قَدْ تُوَفِّيتْ مِنْذُ سَاعَاتٍ !

سَأَلَ كِمْبَلُ غودفري : « مَا الَّذِي حَدَا بِكَ إِلَى الْمَجِيءِ فِي هَذَا الصَّبَاحِ ؟ »

أَجَابَ غودفري ، وَهُوَ يَتَصَنَّعُ عَدَمَ الْإِكْتِرَافِ : « لَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَرَافِقَكَ فَحَسَبُ . وَلَكِنْ مَنْ تَكُونُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ ؟ »

« إِنَّهَا شَابَةٌ نَحِيلَةٌ الْجِسْمِ ذَاتُ شَعْرِ طَوِيلٍ أَسْوَدَ ، تَبْدُو فِي مَلَاسِهَا الرَّثَّةِ كَشَحَاذَةٍ ، وَإِنْ كَانَتْ تَحْمِلُ خَاتَمَ زَوَاجٍ فِي إِصْبَعِهَا . هَيَّا بِنَا نَعُودُ . »

قَالَ غودفري : « سَوْفَ الْحَقُّ بِكَ خِلَالَ دَقِيقَتَيْنِ . أُرِيدُ الْقَاءَ نَظْرَةً عَلَيْهَا ؛ إِذْ أَعْتَقِدُ أَنَّي رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ امْرَأَةً مِثْلَهَا . »

وَمَضَى الطَّبِيبُ كِمْبَلُ فِي طَرِيقِهِ ، وَوَلَجَ غودفري الْكُوخَ . وَتَأَكَّدَ مِنَ النَّظَرَةِ الْأُولَى إِلَى السَّيِّدَةِ الْمُسْكِينَةِ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ !

وَاسْتَدَارَ إِلَى الْمِدْفَاقَةِ الَّتِي كَانَ يَجْلِسُ إِلَى جَوَارِهَا سَايْلَاسُ مَارْتَرُ حَامِلًا الطِّفْلَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَطَّلَعَ إِلَى ابْنَتِهِ ، فَظَنَرَتْ إِلَيْهِ بِعَيْنَيْهَا الزَّرْقَاوَيْنِ الصَّافِيَتَيْنِ دُونَ أَنْ تَدْرِي أَنَّهُ أَبُوهَا ! وَشَعَرَ غودفري لِذَلِكَ بِمَشَاعِرَ مُتَشَابِكَةٍ مِنَ الْحُزَنِ وَالسُّرُورِ . ثُمَّ تَحَوَّلَتِ الطِّفْلَةُ بِبَصَرِهَا إِلَى وَجْهِ مَارْتَرِ ، وَأَخَذَتْ تَرَبَّتْ عَلَى خَدِّهِ بِيَدِهَا النَّحِيلَةِ .

قَالَ غودفري لِسَايْلَاسَ ، وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يُخْفِيَ دَلَائِلَ اهْتِمَامِهِ بِالْأَمْرِ : « يُمَكِّنُكَ الْإِحْتِفَاطُ بِهِذِهِ الطِّفْلَةِ حَتَّى الْعَدِ ، وَعِنْدَئِذٍ سَوْفَ نَجِدُ لَهَا الْمَكَانَ الَّذِي تَلْقَى فِيهِ الرَّعَايَةَ وَالْإِهْتِمَامَ . »

أَجَابَ سَايْلَاسُ فِي حِدَّةٍ شَدِيدَةٍ : « مَنْ قَالَ ذَلِكَ ؟ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يُجِيرَنِي عَلَى التَّخَلِّيِ عَنْ هَذِهِ الطِّفْلَةِ . »

« مَاذَا ! إِنَّكَ رَجُلٌ مُتَقَدِّمٌ فِي السِّنِّ ، وَلَا تَتَوَيُّ أَنْ تَسْتَبْقِيَهَا مَعَكَ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

« سَوْفَ أَسْتَبْقِيهَا مَعِيَ إِلَى أَنْ يَظْهَرَ أَبُوهَا ، أَوْ صَاحِبُ الْحَقِّ الشَّرْعِيِّ فِي أَنْ يَكْفُلَهَا . لَقَدْ مَاتَتْ أُمُّهَا ، وَأَغْلَبُ ظَنِّي أَنَّ أَبَاهَا قَدْ مَاتَ كَذَلِكَ . إِنَّهَا طِفْلةٌ وَحِيدَةٌ ، وَأَنَا رَجُلٌ وَحِيدٌ أَيْضًا . مَا الَّذِي يَمْنَعُ إِذَا مِنْ أَنْ أَتَبْنَاهَا ؟ لَقَدْ ذَهَبَتْ نَقُودِي ، وَلَا أَدْرِي إِلَى أَيْنَ ، ثُمَّ جَاءَتْنِي هَذِهِ الطِّفْلةُ ، وَلَا أَدْرِي مِنْ أَيْنَ ! »

قَالَ غُودْفري : « يَا لَهَا مِنْ مَخْلُوقَةٍ تَعْسَةٍ ! دَعْنِي أَقْدِمُ بَعْضَ الْمَالِ لَتَبْتَاعَ بِهِ مَلَابِسَ جَدِيدَةً لَهَا . »

وَلَمْ يَجِدْ غُودْفري فِي جَيْبِهِ سِوَى قِطْعَةٍ نَقُودٍ فَضِيَّةٍ كَبِيرَةٍ ، فَأَعْطَاهَا لِسَايْلَاسَ ، ثُمَّ أَسْرَعَ لِلْحَاقِ بِكِمْبَلٍ .

وَوَصَلَ غُودْفري إِلَى الْبَيْتِ الْأَحْمَرِ ، وَقَدْ تَمَلَّكَهُ شُعُورٌ قَوِيٌّ بِالرَّاحَةِ وَالْإِطْمِئْنَانِ ، طَغَى عَلَى مَشَاعِيرِ الْأَلَمِ وَتَأْنِيْبِ الضَّمِيرِ الَّتِي كَانَتْ تَجْتَاحُهُ . لَقَدْ خَالَ حِينَئِذٍ أَنَّ الْأَمَلَ فِي زَوَاجِهِ بِنَانْسِي عَلَى وَشْكٍ أَنْ يَتَحَقَّقَ ، وَأَنَّهُ لَا خَطَرَ مِنْ اكْتِشَافِ أَمْرِ زَوَاجِهِ السَّرِيِّ السَّابِقِ ، فَإِنَّ مُسَجَلَ الْعُقُودِ الَّذِي سَجَلَ ذَلِكَ الزَّوْاجَ يَقْطُنُ فِي جِهَةِ بَعِيدَةٍ ، كَمَا أَنَّهُ لَا مَصْلَحَةَ لِأَحَدٍ فِي كَشْفِ هَذَا الْأَمْرِ . إِنَّ أَخَاهُ دَنْسِي هُوَ الشَّخْصُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَكْشِفَ سِرَّهُ ، لَكِنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ يُمْكِنُهُ أَنْ يَشْتَرِيَ سَكُوتَ دَنْسِي بِوَسِيلَةٍ أَوْ بِأُخْرَى .

الفصل الثاني عشر

سايلاس يتبنى إيبى

انْتَهَتْ مَرَامِسُ تَشْيِيعِ جِنَازَةِ الْمَرْأَةِ الْغَامِضَةِ ، وَعَمَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ شُعُورٌ بِالْعَجَبِ وَالْدهْشَةِ لِإِصْرَارِ سَايْلَاسَ مَارَرَهُ عَلَى الْإِحْتِفَافِ بِالطِّفْلةِ الَّتِي لَمْ تَتَعَدَّ السَّنَتَيْنِ مِنْ عُمْرِهَا . وَظَلَّ الْحَدَثُ مَوْضُوعًا لِحَدِيثِهِمْ وَتَعْلِيقَاتِهِمْ رَدْحًا طَوِيلًا مِنَ الزَّمَنِ ، غَيْرَ أَنَّهُ جَلَبَ لِسَايْلَاسَ مِنْ عَطْفِهِمْ وَاهْتِمَامِهِمْ ، لَا سِيمَا النِّسَاءُ مِنْهُمْ ، أَضْعَافَ مَا جَلَبَ عَلَيْهِ حَدِثُ السَّطْوِ عَلَى نَقُودِهِ . فَقَدْ أَخَذَ الرِّجَالُ يَبْذُلُونَ لَهُ الْعَوْنَ ، كَمَا شَرَعَتِ النِّسَاءُ يَبْعَثْنَ إِلَيْهِ بِالْهَدَايَا ، وَيُرْشِدُنَّهُ إِلَى أَفْضَلِ السُّبُلِ لِرِعَايَةِ الطِّفْلةِ وَتَنْشِئَتِهَا . لَكِنَّ الْمَعُونَةَ الَّتِي سَرَّ بِهَا سَايْلَاسَ حَقًّا كَانَتْ تِلْكَ الَّتِي أَتَتْهُ مِنَ السَّيِّدَةِ دُولِي وَنَثْرُوبِ ، فَهِيَ لَا تَمْنُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ ، وَلَا تُحَاوِلُ إِظْهَارَ جَهْلِهِ بِشُئُونِ الْأَطْفَالِ . وَلَقَدْ قَدَّمَ سَايْلَاسَ لِلْسَّيِّدَةِ دُولِي نَقُودًا لِشِرَاءِ مَلَابِسَ جَدِيدَةٍ لِلطِّفْلةِ ، فَأَجَابَتْهُ قَائِلَةً : « آه

يا سيد مارنر ! لا حاجة بك إلى شراء شيءٍ عدا زوج من الأحذية ،
فإنّ لديّ الملابس التي كان يلبسها آرون منذ خمس سنوات ، وهي
تصلح تماماً للطفلة ؛ فإنّ جسمها ينمو بسرعة ، ومن الحماقة أن
نشتري لها ملابس جديدة الآن .

وأحضرت السيدة دولي الملابس التي كان بعضها مرقوعاً أو
مرقوعاً ، ولكنها كانت في غاية النظافة . وأعطت السيدة دولي
للطفلة حمّاماً داخلياً ، خرجت منه نظيفةً وجميلةً للغاية ، وقد لمع
شعرها الذهبيّ البديع . واستلقت الطفلة على صدر السيدة دولي في
حبورٍ واطمئنانٍ ، وهي تناديها قائلةً : « ماما ! ماما ! »

ولم تلبث دولي أن قالت لسايلاس : « اعتقد أنّك على حقّ
يا سيد مارنر في الاحتفاظ بهذه الطفلة الرائعة ، فإنّ السماء قد
أرسلتها لك . ربّما تتعبك قليلاً وهي في هذه السن الصغيرة ،
ولكنّه يسرني أن أحضر إليك بين الحين والآخر لمساعدتك في
تدبير شؤونها . »

أجاب سايلاس : « أشكرك من كلّ قلبي ، غير أنّي أفضل أن
تقومي بإرشادي فحسب ، لأنني أجد متعةً كبيرةً في قضاء حاجاتها
بنفسي ، وأخشى إن تولّى أحد غيري شؤونها أن تغرم به لا بي . »

قالت السيدة دولي : « لقد رأيت طوال حياتي رجالاً كثيرين
يحبون الأطفال إلى هذه الدرجة . »

وأخذت السيدة دولي تعلّم سايلاس كيف يلبس الطفلة ويطعمها
على الوجه الصحيح ، وكان سايلاس يصغي إليها في شغفٍ
واهتمام . ومدّت الطفلة ذراعيها نحو سايلاس ، فصاحت السيدة
دولي قائلةً : « انظر ! انظر ! لقد بدأت تغرم بك . خذها يا سيد
مارنر واشرع في لباسها ، حينئذٍ يمكنك أن تقول بحقّ إنّك قد
فعلت لها كلّ شيءٍ منذ اللحظة التي أتت فيها إليك . »

وحملها مارنر بين ذراعيه ، وألبسها بمساعدة دولي التي قالت
له : « ولكنّ ماذا ستفعل يا سيد مارنر عندما تضطرّ للجلوس إلى
النول للعمل ؟ سوف تتجول الطفلة هنا وهناك ، وحينئذٍ قد تتعرض
للخطر . »

وبدا القلق على وجه سايلاس ، وفكر هنيهةً ثم قال : « سوف
أقيدها إلى رجل النول برباطٍ ما . »

أجابت السيدة دولي : « حسن ، ربّما ينفع هذا وهي طفلة
صغيرة ، أمّا حين تشبّ فسوف أحضر لك ، على أية حال ، كرسيّاً
صغيراً وبضعة لعبٍ لتلهو بها ؛ عندئذٍ سوف تجلس إلى هذه اللعب ،

وَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا فِي رِضًا وَسَعَادَةً .

وَصَمَتَتِ السَّيِّدَةُ دُولِي لَحْظَةً ، ثُمَّ أَرَدَفَتْ : « وَلَكِنْ لَا تَنْسَ يَا سَيِّدُ مَارْتَرُ أَنَّا لَمْ نُسَمِّ الطِّفْلَةَ اسْمًا بَعْدُ . يَجِبُ أَنْ تَتَّفَقَ عَلَى الْإِسْمِ . »

« أَجَلُ . أَنَا أَحِبُّ أَنْ أَسْمِيَهَا إِيْبِي . هَذَا هُوَ الْإِسْمُ الْمُخْتَصَرُّ الَّذِي كُنَّا نَدْعُو بِهِ أُخْتِي الصَّغِيرَةَ ، يَرْحَمُهَا اللَّهُ ! »

قَالَتْ دُولِي : « إِنَّهُ اسْمٌ جَمِيلٌ سَهْلُ النُّطْقِ . سَوْفَ أُرْسِلُ لَهَا ابْنِي آرون لِيرِيَهَا الْعَرَبَةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي صَنَعَهَا لَهُ وَالِدُهُ ، وَسَوْفَ أَقُومُ بِغَسْلِ مَلَابِسِهَا مَعَ مَلَابِسِنَا فِي الْمَوَاعِيدِ الْمُخَصَّصَةِ لِذَلِكَ . وَالْآنَ حَانَ مَوْعِدُ عَوْدَتِي إِلَى الْمَنْزِلِ ، فَإِلَى الْلِقَاءِ يَا سَيِّدُ مَارْتَرُ . »

عَرَفَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ أَنَّ اسْمَ الطِّفْلَةِ إِيْبِي ، وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ تَوَطَّدَتْ صِلَاتُ مَارْتَرِ بِهِمْ ، وَقَوِيَ تَعَامُلُهُ مَعَهُمْ ؛ فَقَدْ قَرَّبَتْهُ إِيْبِي إِلَيْهِمْ ، وَقَرَّبَتْهُمْ إِلَيْهِ ، فَنَمَا فِي قُلُوبِهِمُ الْحُبُّ لَهُ ، وَالْعَطْفُ عَلَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ اجْتَنَبَوْهُ مُدَّةَ خَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا . لَقَدْ كَانَ حُبُّهُ لِلْمَالِ يَحْمِلُهُ عَلَى الْجُلُوسِ إِلَى النَّوْلِ نَهَارًا وَلَيْلًا ، كَيْ يَسْتَرِيدَ مِنَ النُّقُودِ الْفِضِيَّةِ وَالذَّهَبِيَّةِ ، الَّتِي كَانَ يَخْطِفُ قَلْبُهُ بِرَيْقِهَا اللَّامِعِ ، غَيْرَ أَنَّ إِيْبِي قَدْ حَلَّتِ الْآنَ فِي قَلْبِهِ مَحَلُّ النُّقُودِ ، وَاسْتَوَلَى شَعْرُهَا الذَّهَبِيُّ عَلَى لَبِّهِ

بَدَلًا مِنَ الذَّهَبِ الْبَرَّاقِ . وَهَكَذَا خَرَجَ سَايْلَاسُ مِنْ عَزْلَتِهِ إِلَى الْعَالَمِ الْمُحِيطِ بِهِ بِفَضْلِ إِيْبِي ، وَأَصْبَحَ يَجِدُ مَتْعَةً فِي عِشْرَةِ النَّاسِ وَمَحَبَّتِهِمْ ، وَفِي التُّزْهَاتِ وَالرَّحَلَاتِ وَالزِّيَارَاتِ ، وَفِي ضَوْءِ الشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ الطَّلَقِ . لَقَدْ بَدَأَ يَسْتَمِرُّ الْعَيْشَ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَحْرُومًا مِنْ لَذَائِذِهِ ، وَيُحِسُّ أَنَّ حَيَاتَهُ عَامِرَةٌ حَافِلَةٌ بِالْعَطَاءِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ خَاوِيَةً مُقْفِرَةً كَالصَّحْرَاءِ .

هَكَذَا عَادَ لِسَايْلَاسَ كَنْزُهُ الْمَفْقُودُ ، وَلَكِنْ فِي صُورَةِ أَجَلٍ وَأَفْضَلٍ !

وَفِي فَصْلِ الصَّيْفِ كَانَ سَايْلَاسُ يَخْرُجُ بِفَتَاتِهِ الصَّغِيرَةِ عِنْدَ الْغُرُوبِ ، إِلَى الْحُقُولِ الْمُتَرَامِيَةِ خَلْفَ الْمَحْجَرِ ، حَيْثُ كَانَتْ تَنْتَشِرُ الزُّهُورُ وَالرِّيَّاحِينَ . كَانَ يَجْلِسُ عَلَى مَسَافَةِ قَرْيَةٍ مِنْهَا ، بَيْنَمَا كَانَتْ تَنْطَلِقُ عَلَى سَجِيَّتِهَا تَقْطِفُ الزُّهُورَ وَتَرْقُبُ الطُّيُورَ ، ثُمَّ تَجْرِي نَحْوَهُ صَائِحَةً : « بَابَا ! بَابَا ! » لِكَيْ تَلْفِتَ نَظْرَهُ إِلَى بَعْضِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي اسْتَرَعَتْ انْتِبَاهَهَا . وَكَانَ مُعْتَادًا أَنْ يَرِيطَهَا إِلَى النَّوْلِ بِسَيْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْكَتَّانِ ، عِنْدَمَا يَكُونُ مَشْغُولًا عَنْهَا بِعَمَلِهِ . وَكَانَ ذَلِكَ السَّيْرُ يَنْتَهِي بِحِزَامٍ عَرِيضٍ يَلْتَفُّ حَوْلَ وَسْطِهَا ، ثُمَّ يَسْتَطِيلُ لِيَصِلَ بِهَا إِلَى أَعْلَى الْفِرَاشِ ، وَهُوَ أَقْصَى مَا يُمَكِّنُهَا الْوُصُولَ إِلَيْهِ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ يَسْمَحُ

لَهَا يَتَسَلَّقُ شَيْءٌ سِوَى السَّرِيرِ .

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ تَنَاوَلَتِ الطُّفْلَةُ مِقْصَ مَارْنَرٍ أَثْنَاءَ انْشِغَالِهِ عَنْهَا بِعَمَلِهِ ، وَقَطَعَتْ بِهِ السَّيْرَ الَّذِي يَرْبِطُهَا ، وَأَنْطَلَقَتْ تَعْدُو إِلَى الْحُقُولِ خَارِجَ الْكُوخِ . وَجَرَى مَارْنَرٌ بَحْثًا عَنْهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَهُوَ يَكَادُ يُجْنُ مِنَ اللَّهْفَةِ وَالْقَلْقِ ؛ خَشْيَةً أَنْ تَكُونَ قَدْ سَقَطَتْ فِي حُفْرَةِ الْمَحْجَرِ الْقَدِيمِ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَجَدَهَا جَالِسَةً إِلَى جَانِبِ بَرَكَةِ مَوْحِلَةٍ ، وَقَدْ رَمَتْ بِحِذَائِهَا فِي الْمَاءِ .

وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْعَسِيرِ عَلَى مَارْنَرٍ أَنْ يَحْمِلَ إِيَّيَهِ وَالْكَتَّانَ الَّذِي يَنْتِجُهُ فِي آنٍ وَاحِدٍ مَعًا ، فَقَدْ كَانَ يَأْخُذُهَا مَعَهُ دَائِمًا إِلَى مَنَازِلِ عُمَّالَيْهِ الَّذِينَ يَبِيعُ لَهُمُ النَّسِيجَ . وَلَمْ تَلْبَثِ الطُّفْلَةُ الْجَمِيلَةُ ذَاتُ الشَّعْرِ الذَّهَبِيِّ ، أَنْ صَارَتْ مَشْهُورَةً فِي مُعْظَمِ مَنَازِلِ الْقَرْيَةِ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْمَزَارِعِ . وَفَتَحَتْ السَّيِّدَاتُ أَبْوَابَ مَنَازِلِهِنَّ لِسَائِلِاسِ مَارْنَرٍ وَطِفْلَتِهِ السَّاحِرَةِ ، بَعْدَ أَنْ كُنَّ يَخْشَيْنَهُ ، كَمَا أَنَّهُنَّ أَصْبَحْنَ دَائِمَاتِ الْإِسْتِنْفَاسِ عَنْ صِحَّةِ الطُّفْلَةِ وَأَحْوَالِهَا ، حَرِيصَاتٍ عَلَى تَرْوِيدِهِ بِالْهَدَايَا ، بِالإِضَافَةِ إِلَى ثَمَنِ الْكَتَّانِ الَّذِي يَشْتَرِيهِ مِنْهُ . وَانْعَقَدَتْ الصَّدَاقَاتُ بَيْنَ إِيَّيَهِ وَقَرِينَاتِهَا مِنْ أَطْفَالِ الْقَرْيَةِ ، فَكُنَّ يَقْصِدْنَ كُوخَهَا كَثِيرًا مَعَ أُمَّهَاتِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ .

ثُمَّ شَخَّصَ كَانَ يُرَاقِبُ نُمُوَ إِيَّيَ فِي كَنْفِ النَّسَاجِ بِاهْتِمَامٍ وَشَغَفٍ يَفُوقَانِ اهْتِمَامَ وَشَغَفَ الْآخَرِينَ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِصُورَةٍ خَفِيَّةٍ ؛ كَانَ ذَلِكَ الشَّخْصُ هُوَ غُودْفَرِي كَاسَ ، أَبَاهَا الْحَقِيقِي .

لَمْ يَكُنْ غُودْفَرِي لِيَجْرُوَ عَلَى إِظْهَارِ اهْتِمَامِهِ الشَّدِيدِ بِالطُّفْلَةِ بِصُورَةٍ مَلْحُوظَةٍ ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يَعْطِي لِسَائِلِاسِ نُقُودًا كُلَّمَا قَابَلَهُ ، لِيَشْتَرِيَ بِهَا مَلَابِيسَ أَوْ حُلُوبَاتٍ لِلْفَتَاةِ . كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الطُّفْلَةَ تَتَمَتَّعُ بِرِعَايَةٍ تَامَةٍ ، وَأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ أَسْعَدَ حَالًا مِنْ كَثِيرٍ مِنْ أَطْفَالِ الْأَغْنِيَاءِ ، بَيْدَ أَنَّهُ كَانَ يَعْتَزِمُ أَنْ يُقَدِّمَ لَهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ دُونَ إِثَارَةٍ لِلشُّكُوكِ . عَلَى أَنَّ غُودْفَرِي كَاسَ كَانَ يَبْدُو حِينئِذٍ أَسْعَدَ حَالًا مِنْ ذِي قَبْلُ ، فَلَقَدْ تَحَوَّلَ إِلَى رَجُلٍ آخَرَ يَمُقَّتُ الشَّرَّ وَالرَّذِيلَةَ ، كَمَا صَارَ لَهُ هَدَفٌ مُحَدَّدٌ فِي الْحَيَاةِ ، هُوَ الزَّوْاجُ بِنَانَسِي لَامِيَتِرَ وَتَكْوِينُ أُسْرَةٍ سَعِيدَةٍ هَانِئَةٍ ، يَلْتَفُّ فِيهَا الْأَطْفَالُ حَوْلَهُمَا إِلَى جِوَارِ الْمِدْفَاةِ . لَمْ يَعُدْ يَخْشَى عَوْدَةَ شَقِيْقِهِ دَانِسْتَانَ ، الَّذِي قَالَ بَعْضُ النَّاسِ عَنْهُ إِنَّهُ قَدْ انْخَرَطَ فِي سِلْكِ الْجُنْدِيَّةِ ، وَأَشَاعَ آخَرُونَ أَنَّهُ غَادَرَ الْبِلَادَ إِلَى الْخَارِجِ ، وَصَارَ يَذْهَبُ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى ظَهْرِ جَوَادِهِ إِلَى بَيْتِ آلِ لَامِيَتِرَ ، كَمَا أَخَذَ النَّاسُ يَتَرَقَّبُونَ إِعْلَانَ مَوْعِدِ الزَّفَافِ عَنْ قَرِيبٍ .

يُفْضِي إِلَى بَوَابَةٍ صَغِيرَةٍ مُوَاجِهَةٍ لِلْبَيْتِ الْأَحْمَرِ .

كَانَ سَايْلَاسُ مَارَنَرُ قَدْ أَصْبَحَ أَشْهَرَ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمٍ ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ الْخَامِسَةَ وَالْخَمْسِينَ مِنَ الْعُمُرِ ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يَدُو بِكَتْفَيْهِ الْمُقَوَّسَتَيْنِ وَشَعْرَهُ الشَّدِيدِ الْبَيَاضِ أَكْبَرَ سِنًا مِنْ ذَلِكَ . كَانَتْ عَيْنَاهُ الْعَسَلِيَّتَانِ الْوَاسِعَتَانِ لَا تَزَالَانِ حَادَتِي الْبَصَرِ ، وَكَانَتْ تَسِيرُ إِلَى جَانِبِهِ فَتَأْتِي حُلُوةً جَذَابَةً فِي الثَّامِنَةِ عَشْرَةِ مِنْ عُمْرِهَا ، هِيَ إِييَا ابْنَتِهِ بِالتَّبَنِّي . وَكَانَتْ ذَاتَ شَعْرٍ أَصْفَرَ مُتَجَعَّدٍ لَا نَظِيرَ لَهُ عَلَى فَتَاةٍ أُخْرَى فِي رَافِلُو ، وَإِنْ كَانَ عَصِيًّا عَلَى التَّمَشُّيطِ ، غَيْرَ أَنَّهُا كَانَتْ تُحَاوِلُ دَائِمًا تَشْدِيدَ ذَلِكَ الشَّعْرِ الْجَذَابِ الرَّائِعِ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تُرِيدُهُ مُصَفَّفًا مُنَظَّمًا كَطَبِيعَتِهَا الرَّقِيقَةِ الْمُهَذَّبَةِ ، وَطَبْعُهَا الَّذِي يَمِيلُ إِلَى الْهُدُوءِ وَالنِّظَامِ .

قَالَتْ إِييَا لِسَايْلَاسٍ عِنْدَمَا خَرَجَا إِلَى الطَّرِيقِ : « أَتَمَنَّى يَا أَبِي أَنْ نَمْتَلِكَ حَدِيقَةً صَغِيرَةً كَحَدِيقَةِ زَوْجَةٍ وَنَثْرُوبَ ، غَيْرَ أَنَّهُا سَوْفَ تَحْتَاجُ إِلَى عَمَلٍ شاقٍّ لِإِفْلَاحَتِهَا وَزِرَاعَتِهَا ، وَأَنَا لَا أَحِبُّ أَنْ تَقُومَ أَنْتَ بِمِثْلِ هَذَا الْعَمَلِ الشَّاقِّ . »

« بَلْ إِنَّنِي قَادِرٌ عَلَى الْقِيَامِ بِهِ مِنْ أَجْلِ خَاطِرِكَ ، يَا بَنِيَّتِي . إِنَّنِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْتَنِيَ بِالْحَدِيقَةِ فِي الْمَسَاءِ ، ثُمَّ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ ، قَبْلَ

الفصل الثالث عشر

الحياة في الكوخ

مَرَّتْ سِتُّ عَشْرَةَ سَنَةً عَلَى عَثُورِ سَايْلَاسِ مَارَنَرٍ عَلَى إِييَا فِي كُوخِهِ ، أَوْ بِالْأُخْرَى عَلَى كَنْزِهِ الْجَدِيدِ . وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآحَادِ كَانَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ عَائِدِينَ إِلَى بُيُوتِهِمْ وَفِي مُقَدِّمَتِهِمُ السَّيِّدُ غُودْفَرِي كَاسَ ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ الثَّانِيَةَ وَالْأَرْبَعِينَ مِنَ الْعُمُرِ ، وَإِلَى جَانِبِهِ زَوْجَتُهُ الْجَمِيلَةُ السَّيِّدَةُ نَانْسِي لَامِيَتِر . وَلَمْ يَكُنْ وَجْهُهُ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرًا عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِي سِنِّ السَّادِسَةِ وَالْعِشْرِينَ ، وَلَكِنْ جِسْمُهُ قَدْ اكْتَنَزَ قَلِيلًا . أَمَّا زَوْجَتُهُ الَّتِي كَانَتْ فِي مِثْلِ سِنِّهِ تَقْرِيْبًا ، فَقَدْ اعْتَزَّاهَا تَغْيِيرٌ أَكْبَرُ ، غَيْرَ أَنَّ رُوحَهَا السَّامِيَةَ وَشَخْصِيَّتَهَا النَّبِيلَةَ كَانَتَا تَضْفِيَانِ عَلَى وَجْهِهَا حُسْنًا وَجَلَالًا بِادِّينِ .

وَتَلَفَّتِ السَّيِّدَةُ غُودْفَرِي وَزَوْجَتَهُ حَوْلَهُمَا بَحْثًا عَنْ وَالِدَيْهَا السَّيِّدِ لَامِيَتِرِ وَأَخْتِهَا بَرِيْسِيَلَا ، ثُمَّ سَارَ الْجَمِيعُ عَبْرَ الْمَرِّ الضَّيِّقِ الَّذِي

أَنْ أَجْلِسَ إِلَى نَوْلِي . لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرْنِي مِنْ قَبْلُ بِأَنَّكَ تَتَوَقَّعُ إِلَى
امْتِلَاكِ حَدِيقَةٍ ؟

عِنْدَئِذٍ أَسْرَعَ شَابٌ وَسِيمٌ كَانَ يَسِيرُ خَلْفَهُمَا فِي خُطَاهُ ، حَتَّى
إِذَا أَصْبَحَ بِمُحَاذَاتِهِمَا قَالَ : « إِنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَعَهَّدَ لَكَ هَذِهِ
الْحَدِيقَةَ يَا سَيِّدَ مَارْتَر ، بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ شُغْلِ النَّهَارِ ، وَسَاحِضِ الثَّرْبَةِ
الْلاَزِمَةِ لَهَا مِنْ حَدِيقَةِ السَّيِّدِ كَاس . أَنَا مُوقِنٌ مِنْ أَنَّهُ سَيَأْذَنُ لِي
بِذَلِكَ . »

وَالْتَفَتَ إِلَيْهِ سَايْلَاس ، ثُمَّ قَالَ : « أَهْوَ أَنْتَ يَا آرُون ؟ حَسَنٌ ،
إِذَا كُنْتُ سَتُسَاعِدُنِي فِي الْحَدِيقَةِ فَسَوْفَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَحْقُقَ رَغْبَةَ
إِبِّي فِي زَمَنٍ وَجِيزٍ . »

أَجَابَ آرُونُ بِسُرْعَةٍ : « إِذَا فَسَوْفَ أَجِيءُ إِلَى الْمَحْجَرِ عَصَرَ الْيَوْمِ ،
لِنُقَرَّرَ مَعَ نَوْعِ الثَّرْبَةِ الْمُنَاسِبِ ، وَسَوْفَ أَسْتَيْقِظُ مُبَكَّرًا فِي صَبَاحِ الْغَدِ
لَأَبْدَأَ الْعَمَلَ . »

قَالَتْ إِبِّي : « وَلَكِنْ أَرْجُو أَنْ تَعِدَنِي بِأَلَّا تَعْمَلَ فِي الْحَفْرِ
يَا وَالِدِي ، فَإِنَّ هَذَا الْعَمَلَ شَاقٌّ عَلَيْكَ . وَأَنَا لَمْ أَكُنْ لَأَذْكُرْ لَكَ
شَيْئًا عَنْ هَذِهِ الْحَدِيقَةِ ، لَوْلَا أَنَّ زَوْجَةَ وَنَثْرُوبَ أَكَّدَتْ بِأَنَّ آرُون
سَوْفَ يُسَاعِدُنِي فِي فِلَاحَتِهَا . »

بَادَرَ آرُونُ إِلَى الْقَوْلِ : « كَانَ يَجِبُ أَنْ تَتَأَكَّدِي مِنْ مُسَاعَدَتِي
دُونَ أَنْ تُخْبِرِكِ أُمِّي بِذَلِكَ ! كَمَا أَنَّ السَّيِّدَ مَارْتَر يَعْرِفُ أَيْضًا أَنَّي
مُسْتَعِدٌّ لِأَنْ أَعَاوَنَهُ فِي أَيِّ عَمَلٍ . »

قَالَتْ إِبِّي فِي رَفَقَةٍ : « أَنْتَ لَنْ تَشْتَغَلَ فِي الْحَدِيقَةِ إِذَا يَا أُمِّي قَبْلَ
أَنْ يُمَهِّدَهَا آرُون . سَوْفَ نَخْطِطُ ، آرُونُ وَأَنَا ، الْأَحْوَاضَ أَوَّلًا ثُمَّ
نَزْرَعُ الزُّهُورَ . إِنَّهُ لَجَمِيلٌ حَقًّا أَنْ نَزْرَعَ الزُّهُورَ إِلَى جِوَارِ الْمَحْجَرِ ،
أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا آرُون ؟ »

أَجَابَ آرُونُ عَلَى الْقَوْلِ : « سَوْفَ أَحْضِرُ جُذُورَ جَمِيعِ النَّبَاتَاتِ
مِنَ الْبَيْتِ الْأَحْمَرِ ، عِنْدَ شُرُوعِي فِي فِلَاحَةِ الْحَدِيقَةِ هُنَاكَ ، فَأَنَا
أَقْطَعُ الْكَثِيرَ مِنْهَا خِلَالَ عَمَلِي وَأَقْدِفُ بِهَا بَعِيدًا ؛ إِذْ لَا حَاجَةَ لِأَحَدٍ
بِهَا . »

أَجَابَهُ سَايْلَاس : « حَسَنٌ ، أَرْجُو أَلَّا تَتَعَبَ كَثِيرًا مِنْ أَجْلِنا ، أَوْ
تَطْلُبَ لَنَا أَشْيَاءَ ذَاتَ قِيَمَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْبَيْتِ الْأَحْمَرِ ، فَإِنَّ السَّيِّدَ
كَاسَ قَدْ بَدَّلَ لَنَا مَا فِيهِ الْكِفَايَةُ . لَقَدْ بَنَى لَنَا عُرْفَةً جَدِيدَةً فَسِيحَةٌ
مُلْحَقَةٌ بِالْكُؤُخِ ، وَزَوَّدَنَا بِالْأَسِيرَةِ وَالْفَرَشِ ، وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَطْلُبَ مِنْهُ
أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . »

قَالَ آرُونُ : « لَا تَقْلُقْ بِهَذَا الْخُصُوصِ . »

وَأَرَدَفَ بَعْدَ بَرْهَةٍ وَجِيزَةٍ : « يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ الْآنَ ، فَإِنَّ وَالِدَتِي
فِي أَنْتِظَارِي . »

قَالَتْ إِيَّي : « جِئْتُ بِهَا مَعَكَ عَصَرَ الْيَوْمِ يَا آرون ، فَأَنَا أَحِبُّ أَنْ
تَعْرِفَ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الْحَدِيقَةِ مُنْذُ الْبِدَايَةِ ، حَتَّى تُرْشِدَنَا بِأَرَائِهَا
الصَّائِبَةِ . »

وَعَادَ آرون إِلَى الْقَرْيَةِ ، بَيْنَمَا اسْتَأْنَفَ سَائِلَاسُ وَإِيَّي سِيرَهُمَا فِي
اتِّجَاهِ الْمَحْجَرِ .

وَلَمَّا وَصَلَا الْكُوْخَ وَفَتَحَتْ إِيَّي الْبَابَ سَمِعَا صَوْتَ كَلْبٍ يَنْبَحُ
بِالدَّخِلِ ، وَوَجَدَا بِالْقُرْبِ مِنَ النَّافِذَةِ قِطْعَةً تَجْلِسُ فِي دِفْءِ الشَّمْسِ
أَنْتِظَارًا لِيَدِ حَنُونٍ تُرَبِّتُ عَلَيْهَا . كَانَ الْكُوْخُ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرًا عَنْ ذِي
قَبْلُ ؛ فَقَدْ اخْتَفَى فِرَاشُ النَّوْمِ مِنْ مَدْخَلِهِ ، وَامْتَلَأَتِ الرَّدْهَةُ بِالْأَثَاثِ
الْجَمِيلِ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ الْأَحْمَرِ ، كَمَا حَوَتْ الْغُرْفَةُ
الدَّاخِلِيَّةُ الْجَدِيدَةُ أَسِرَّةَ مُرِيحَةٍ وَفِرَاشًا نَظِيفًا . وَكَانَ مَعْرُوفًا لَدَى أَهْلِ
الْقَرْيَةِ أَنَّ السَّيِّدَ غُودْفري كَاسَ يَعْطِفُ كَثِيرًا عَلَى النَّسَاجِ وَأَبْنَتِهِ ،
وَكَانُوا يَرَوْنَ ذَلِكَ أَمْرًا طَبِيعِيًّا وَاجِبًا عَلَى مِثْلِهِ نَحْوُ النَّسَاجِ الْفَقِيرِ
الطَّيِّبِ الَّذِي تَطَوَّعَ بِتَرْبِيَةِ فَتَاةٍ يَتِيمَةٍ .

وَبَعْدَ أَنْ تَنَاوَلَ سَائِلَاسُ وَإِيَّي طَعَامَ الْغَدَاةِ ، خَرَجَ الْأَوَّلُ لِيَجْلِسَ



أمام الباب وَيَدْخُنْ عَلَيْهِ فِي دِفْءِ الشَّمْسِ ، بَيْنَمَا شَرَعَتْ الْفَتَاةُ فِي رَفْعِ الْأَطْبَاقِ وَتَرْتِيبِ الْبَيْتِ . وَكَانَ سَائِلَاسُ لَا يَمِيلُ إِلَى التَّدْخِينِ ، غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ جِيرَانِهِ نَصَحُوهُ بِتَدْخِينِ الْعَالِيُونَ ؛ زَاعِمِينَ أَنَّ ذَلِكَ قَدْ يُفِيدُ فِي مَنَعِ نَوَابِتِ الْأَعْمَاءِ الَّتِي كَانَتْ تَتَابُهُ . وَلَقَدْ اسْتَجَابَ لِنَصِيحَتِهِمُ الْجَهْلُولِ بِسَبَبِ قُرْطِ اهْتِمَامِهِ بِصِحَّتِهِ ، بَعْدَ أَنْ دَخَلَتْ إِيَّيْ حَيَاتِهِ ، وَحَلَّتْ فِيهَا مَحَلُّ الذَّهَبِ ، وَجَعَلَتْ لِتِلْكَ الْحَيَاةِ لَذَّةً وَقِيمَةً . هَكَذَا كَانَ سَائِلَاسُ يَعِيشُ تِلْكَ الْفَتْرَةَ مِنْ حَيَاتِهِ عَيْشَةً هَانِئَةً وَادِعَةً ، وَلَكِنْ الذِّكْرِيَّاتِ الْقَدِيمَةِ الْمُرِيرَةِ ، الْمُسْتَقْرَّةِ فِي عَقْلِهِ الْبَاطِنِ ، عَنْ حَيَاتِهِ السَّابِقَةِ قَبْلَ مَجِيئِهِ إِلَى رَافِيلُو ، لَمْ تَلْبَثْ أَنْ اسْتَيْقَظَتْ فَجَاءَةً ، وَأَخَذَتْ تُفْسِدُ عَلَيْهِ سَعَادَتَهُ وَهَنَاءَتَهُ . وَلَمَّا كَانَتْ صِلَتُهُ بِالسَّيِّدَةِ دُولِي وَنَثْرُوبِ قَدْ تَوَطَّدَتْ تَمَامًا ، فَقَدْ شَرَعَ يَحْكِي لَهَا شَيْئًا فَشَيْئًا وَقَائِعَ تِلْكَ الْحَيَاةِ الْغَابِرَةِ الْحَزِينَةِ . لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِالشَّيْءِ الْيَسِيرِ عَلَى رَجُلٍ مِثْلِهِ ، كَمَا كَانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى دُولِي أَنْ تَفْهَمَ كُلَّ شَيْءٍ بِوُضُوحٍ . وَلَكِنْ مَا إِنَّهُ أَتَى إِلَى نِهَايَةِ قِصَّتِهِ وَذَكَرَ فِي أَسَى بَالِغٍ حُكْمَ النَّاسِ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ السَّارِقُ ، وَتَنَكَّرَ خَطِيبَتِهِ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، حَتَّى أَطْرَقَتِ السَّيِّدَةُ دُولِي هَنِيئَةً ، ثُمَّ قَالَتْ : « كَانَ السَّبَبُ فِي نَكْبَتِكَ حِينَئِذٍ يَا سَيِّدُ مَارْنَرُ هُوَ ضَعْفُ إِيمَانِكَ بِاللَّهِ . وَلَوْ كُنْتُ قَوِيَّ الْإِيمَانِ وَالثَّقَّةَ بِاللَّهِ لَمَا هَرَبْتُ بَعِيدًا عَنْ أَصْدِقَائِكَ ، وَآثَرْتُ الْعَزْلَةَ وَالْإِنْفِرَادَ . »

أَجَابَ سَائِلَاسُ فِي هُدُوءٍ : « آه ، وَلَكِنْ ذَلِكَ كَانَ شَيْئًا عَسِيرًا لِلْغَايَةِ . كَانَ مِنَ الصَّعْبِ حِينَئِذٍ الْوُثُوقُ فِي أَيِّ شَيْءٍ ! »
قَالَتْ دُولِي فِي اسْتِحْيَاءٍ : « حَقًّا إِنَّ الثَّقَّةَ تُصْبِحُ عَسِيرَةً فِي مِثْلِ تِلْكَ الظُّرُوفِ ! »

غَيْرَ أَنَّ سَائِلَاسَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ هَبَّ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ قَائِلًا : « بَلْ إِنَّكَ عَلَى حَقٍّ يَا سَيِّدَةُ دُولِي . يَجِبُ أَلَّا يَفْقِدَ الْإِنْسَانُ ثِقَّتَهُ بِاللَّهِ مَهْمَا حَدَثَ . إِنَّ فِي هَذَا الْعَالَمِ خَيْرًا كَثِيرًا ، أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَرَاهُ بِنَظَرِهِ الْقَصِيرِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا يُشَوِّهُهُ مِنْ حَقْدٍ وَكَرَاهِيَةٍ وَخُبْثٍ ! »

وَقَصَّ مَارْنَرُ عَلَى إِيَّيْ أَيْضًا ، بَعْدَ أَنْ كَبُرَتْ ، قِصَّةَ حَيَاتِهِ الْمَاضِيَةِ ؛ فَلَقَدْ كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يُخْفِيَ عَنْهَا أَنَّهَا لَيْسَتْ ابْنَتُهُ ؛ إِذْ كَانَتْ دَائِمَةً السُّؤَالِ عَنْ أُمِّهَا . وَبَعْدَ أَنْ سَرَدَ عَلَيْهَا الْقِصَّةَ كُلَّهَا أَعْطَاهَا خَاتَمَ الزَّوْاجِ الَّذِي كَانَ فِي إَصْبَعِ أُمِّهَا . غَيْرَ أَنَّهَا لَمْ تَسْأَلْ قَطُّ عَمَّنْ يَكُونُ أَبُوهَا ، فَلَقَدْ كَانَتْ عَاطِفَةً الْحُبِّ الْقَوِيَّةَ الَّتِي رَبَطَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ سَائِلَاسَ تُغْنِيهَا عَنْ ذَلِكَ السُّؤَالِ .

وَفِي عَصْرِ يَوْمِ الْأَحَدِ ، عِنْدَمَا خَرَجَتْ لِتَسْتَمْتَعَ بِدِفْءِ الشَّمْسِ ، كَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ وَقَعَ عَلَيْهِ بَصَرُهَا هُوَ الشَّجَرَةُ الَّتِي مَاتَتْ عِنْدَهَا أُمُّهَا ،

وَكَانَتْ مِنَ النَّوعِ الدَّائِمِ الْإِخْضِرَارِ وَذَاتِ أَزْهَارٍ صَفْرَاءَ .

قَالَتِ الْفَتَاةُ لِمَارْنَرٍ : « سَوْفَ نَزْرَعُ مِثْلَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فِي حَدِيقَتِنَا . سَأَزْرَعُهَا فِي رُكْنِ الْحَدِيقَةِ ، وَأَزْرَعُ زَهْرًا حَوْلَهَا . »

أَجَابَهَا سَائِلَاسُ : « أَجَلْ يَا ابْنَتِي ، سَنَزْرَعُ مِثْلَهَا . سَوْفَ تُصْبِحُ جَمِيلَةً جِدًّا عِنْدَمَا تَبْنَعُ زَهْرُومَهَا ، وَتَكْتَسِي بِاللُّونِ الْأَصْفَرِ الْخِلَابِ . عَلَى أَنَّنِي أَفَكِّرُ الْآنَ فِي السُّورِ الَّذِي سَوْفَ نَقِيمُهُ حَوْلَ الْحَدِيقَةِ لِمَنْعِ الْحَيَوَانَاتِ مِنْ دُخُولِهَا . »

قَالَتْ إِيْبِي : « أَجَلْ يَا أَبِي ، يُمَكِّنْ أَنْ نَبْنِيَهُ مِنَ الْحِجَارَةِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَنَاطِرَةِ فِي هَذَا الْمَكَانِ . إِنَّ مُعْظَمَهَا مُتَوَسِّطُ الْحَجْمِ وَيَصْلُحُ لِهَذَا الْغَرَضِ . »

وَجَرَتْ نَحْوَ الْحُفْرَةِ الْكَبِيرَةِ لِتَنْقُلَ لِسَائِلَاسَ أَحَدَ تِلْكَ الْأَحْجَارِ ، لَكِنَّهَا لَمْ تَلْبَثْ أَنْ تَوَقَّفَتْ ، وَصَاحَتْ فِي دَهْشَةٍ : « أَبْنَاهُ ! تَعَالِ وَأَنْظُرْ هَا هُنَا ! لَقَدْ أَنْخَفَضَ الْمَاءُ كَثِيرًا عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ بِالْأَمْسِ ! »

وَنَظَرَ سَائِلَاسُ إِلَى الْحُفْرَةِ ، ثُمَّ قَالَ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . لَقَدْ هَبَّطَ الْمَاءُ نَتِيجَةَ لِعَمَلِيَّاتِ التَّجْفِيفِ الَّتِي قَامُوا بِهَا فِي حَقُولِ السَّيِّدِ أَوْسُغُودِ عَلَى مَا أَعْتَقِدُ . لَقَدْ قَالَ لِي أَحَدُ الْعَمَالِ مِنْذُ بَضْعَةِ أَيَّامٍ إِنَّهُمْ سَوْفَ

يُجَفِّفُونَ أَرْضَنَا تَمَامًا . »

« يَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ جَمِيلٍ أَنْ تَجِفَّ هَذِهِ الْحَفْرَةُ الْعَتِيدَةُ ! »

وَالْتَفَقَطَتْ حَجَرًا كَبِيرًا ، حَمَلَتْهُ بِضَعِ خُطَوَاتِ ، ثُمَّ تَرَكَتْهُ يَسْقُطُ .

قَالَ سَائِلَاسُ : « هَيَّا بِنَا نَجْلِسْ عَلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ الَّذِي هُنَاكَ ، وَدَعِي رَفْعَ الْأَحْجَارِ فَهِيَ تُؤْذِي أَنْامِلَكَ الرَّقِيقَةَ . أَنْتِ فِي حَاجَةٍ إِلَى رَجُلٍ يَعْمَلُ مِنْ أَجْلِكَ ، وَذِرَاعَايَ لَمْ تَعُودَا مِنَ الْقُوَّةِ كَمَا كَانَتَا مِنْ قَبْلُ . »

وَنَظَرَ سَائِلَاسُ إِلَى إِيْبِي نَظْرَةً ذَاتَ مَغْزَى . وَبَعْدَ فِتْرَةٍ مِنَ الصَّمْتِ قَالَتِ الْفَتَاةُ فَجَاءَةً : « إِذَا مَا تَزَوَّجْتُ يَا أَبِي ، فَهَلْ يَجِبُ أَنْ أَلْبَسَ خَاتَمَ أُمِّي ؟ »

أَجَابَ سَائِلَاسُ فِي دَهْشَةٍ : « وَلِمَاذَا تُفَكِّرِينَ فِي هَذَا الْأَمْرِ !؟ »

قَالَتِ الْفَتَاةُ فِي بَسَاطَةٍ جَدَّابَةٍ : « بَدَأْتُ أَفَكِّرُ فِيهِ مِنْذُ الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي فَقَطْ ، مِنْذُ أَنْ أَخَذَ آرُونُ يُحَدِّثُنِي بِخُصُوصِيهِ . »

« وَمَاذَا قَالَ ؟ »

« قَالَ إِنَّهُ يُرِيدُ الزَّوْاجَ لِأَنَّهُ بَلَغَ الرَّابِعَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْعُمُرِ ، وَلَدَيْهِ عَمَلٌ مُرَبِّحٌ . »

وَأَرَدَفَتْ إِيَّيَ وَهِيَ تَضْحَكُ : « ثُمَّ أَضَافَ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي أَنَا بِالذَّاتِ . »

قَالَ سَائِلَاسَ : « وَهَلْ تَتَوَيْنَ الزَّوْاجَ بِهِ ؟ »

أَجَابَتْ إِيَّيَ : « أَجَلٌ يَا أَبِي ، فِي يَوْمٍ مَا ، وَلَكِنِّي لَا أَعْرِفُ مَتَى ، غَيْرَ أَنَّكَ لَنْ تَبْقَى وَحِيدًا بَعْدَ ذَلِكَ يَا أَبِي ، هَكَذَا قَالَ آرون . سَوْفَ نَعِيشُ جَمِيعًا مَعًا ، وَلَنْ تَكُونَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْعَمَلِ ، عِنْدَمَا لَا تَشْعُرُ بِالْقُوَّةِ الْكَافِيَةِ لِذَلِكَ . سَوْفَ يَكُونُ آرونُ بِمِثَابَةِ ابْنِ لَكَ ، هَكَذَا قَالَ . »

قَالَ سَائِلَاسَ وَهُوَ يَنْفُثُ دُخَانَ عُلْيُونِهِ : « إِيهَ يَا بَنِيَّتِي الْحَبِيبَةَ ، أَنْتِ أَصْغَرُ مَنْ أَنْ تَتَزَوَّجِي الْآنَ . عَلَى أَنَّي سَوْفَ أَسْأَلُ زَوْجَةً وَنُشْرِبُ رَأْيَهَا فِي الْأَمْرِ ، فَهِيَ تَعْرِفُ مَا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَفْعَلَ . إِنَّ الظُّرُوفَ سَوْفَ تَتَغَيَّرُ ، وَأَنَا سَوْفَ أَزْدَادُ تَقْدُّمًا فِي السَّنِّ ، وَأَصْبِحُ عَجُوزًا خَائِرَ الْقَوَى ، وَإِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَكَ زَوْجٌ شَابٌّ يُعْنَى بِأَمْرِكَ . سَوْفَ أَسْأَلُ زَوْجَةً وَنُشْرِبُ رَأْيَهَا فِي الْأَمْرِ . »

وَلَمْ تَلْبَثْ إِيَّيَ أَنْ صَاحَتْ قَائِلَةً : « هَا هِيَ ذِي قَادِمَةٍ مَعَ آرون . هَيَّا بِنَا نَذْهَبُ لِاسْتِقْبَالِهِمَا . »

وَقَالَتْ بَرِيسِيلا لِأَخْتِهَا وَهَمَّا تَسِيرَانِ فَوْقَ السُّنْدُسِ الْأَخْضَرِ :
 « حَسَنًا صَنَعَ غُودْفري بِإِنْشَاءِ مَزْرَعَةٍ لِتَرْيِيَةِ الْأَبْقَارِ وَاسْتِدْرَارِ اللَّبَنِ
 مِنْهَا ، فَإِنَّ الإِشْرَافَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْمَزْرَعَةِ وَمَعْمَلِ الْأَلْبَانِ الْمُلْحَقِ بِهَا
 هُوَ خَيْرٌ مَا تُرْجِيَانِ بِهِ وَقْتَ فَرَاغِكُمَا ، حَتَّى لَا تُعَانِيَا مِنَ الْإِحْسَاسِ
 بِالْبَطَالَةِ وَالْمَلَلِ . »

الفصل الرابع عشر الحياة في البيت الأحمر

أَجَابَتْ نَانْسِي فِي هُدوءٍ : « آه يَا بَرِيسِيلا ، وَلَكِنْ هَذَا لَنْ يُسَاعِدَ
 غُودْفري كَثِيرًا ، فَإِنَّ مَزْرَعَةَ اللَّأْبَانِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْتَحْوَذَ عَلَى اهْتِمَامِ
 الرَّجُلِ كُلِّهِ . إِنِّي رَاضِيَةٌ كُلُّ الرِّضَا بِمَا نَحْنُ فِيهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا
 يَتِمَلَّكُنِي الْحُزْنُ لِحَالِ غُودْفري . إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُنْجِبَ وَلَدًا أَوْ بِنْتًا أَوْ
 كِلَيْهِمَا ، وَهَذَا شُعُورٌ طَبِيعِي . إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ يَعْمَلُ وَيَجِدُ
 فِي سَبِيلِ تَنْشِئَتِهِمْ وَبِنَاءِ مُسْتَقْبَلِهِمْ . إِنَّ كَثِيرِينَ مِنَ الرِّجَالِ يُصْبِحُونَ
 أَسْوَأَ حَالًا عِنْدَ حِرْمَانِهِمْ مِنَ الْأَطْفَالِ ، وَلَكِنْ زَوْجِي طَيِّبٌ لِلْغَايَةِ . »

قَالَتْ بَرِيسِيلا مازحةً : « إِنِّي عَلِيْمَةٌ بِأَحْوَالِكُنَّ أَيَّتُهَا الزَّوْجَاتُ ،
 فَأَنْتُنَّ تَمْتَدِّحْنَ أَزْوَاجَكُنَّ طَوْرًا ، وَتَنْحِنِ عَلَيْهِنَّ بِاللَّوْمِ طَوْرًا آخَرَ .
 عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ الْآنَ ، فَإِنَّ الْوَالِدِي فِي انْتِظَارِي . »

كَانَتِ الْعَرَبَةُ وَاقِفَةً عِنْدَ الْبَابِ ، وَالسَّيِّدُ لَامِيتر يَنْتَظِرُ عَلَى دَرَجِ
 الْمَنْزِلِ . وَقَالَتْ بَرِيسِيلا وَهِيَ تَرَكُّبُ : « تَذَكَّرْ يَا سَيِّدُ غُودْفري أَنْ

كَانَتْ مَظَاهِرُ الْحَيَاةِ فِي الْبَيْتِ الْأَحْمَرِ قَدْ تَغَيَّرَتْ كَثِيرًا بَعْدَ
 مَقْدَمِ السَّيِّدَةِ نَانْسِي زَوْجَةِ غُودْفري . فَقَدْ اخْتَفَى الْغُبَارُ الَّذِي كَانَ
 يَغْلُو أَرْضَ الْمَنْزِلِ وَجُدْرَانَهُ ، حِينَ كَانَ الشَّرِيفُ الْكَهْلُ يَعِيشُ بِلا
 سَيِّدَةٍ فِي مَنْزِلِهِ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجَتِهِ ، كَمَا بَدَتْ حَجَرَةُ الْإِسْتِقْبَالِ أُنِيقَةً
 وَمُرْتَبَةً ، يَلْمَعُ أَثَاثُهَا ، وَتَعْبُقُ بِشِدَا الزُّهُورِ .

كَانَتْ زَوْجَةُ غُودْفري وَأَخْتُهَا بَرِيسِيلا جَالِسَتَيْنِ مَعَ أَبِيهِمَا السَّيِّدِ
 لَامِيتر وَالسَّيِّدِ غُودْفري فِي عُرْفَةِ الْإِسْتِقْبَالِ بَعْدَ أَنْ فَرَّغُوا جَمِيعًا مِنْ
 تَنَاوُلِ الْغَدَاءِ . وَقَالَتْ بَرِيسِيلا لِأَخْتِهَا نَانْسِي : « لَقَدْ أَمَرْتُ بِإِعْدَادِ
 الْعَرَبَةِ كَيْ نَعُودَ إِلَى بَيْتِنَا قَبْلَ هُبُوطِ الظَّلَامِ ، وَسَوْفَ أَتَوَلَّى أَنَا قِيَادَةَ
 الْجَوَادِ ؛ حَتَّى يَتَسَنَّى لَوَالِدِي أَنْ يَسْتَمْتَعَ بِغَفْوَةِ مُرِيحَةٍ خِلَالَ الْعُودَةِ .
 وَيُمْكِنُنَا الْآنَ أَنْ نَتَمَشَّى قَلِيلًا حَوْلَ الْحَدِيقَةِ ، رَیْثَمَا يُعِدُّونَ الْعَرَبَةَ
 وَالْجَوَادَ . »

إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ . لَكِنَّهَا مَا كَادَتْ تَخْلُو إِلَى نَفْسِهَا فِي مَسَاءِ ذَلِكَ
الْيَوْمِ ، حَتَّى انْتَبَهَتْ فِي ذَهْنِهَا أَفْكَارَ لَمْ تَجُلْ بِخَاطِرِهَا مِنْ قَبْلُ :
« مَاذَا سَيَفْعَلُ غُودْفري عِنْدَمَا يَتَقَدَّمُ بِهِ الْعُمُرُ ؟ إِنَّ كِبَارَ السَّنِّ
يَشْعُرُونَ دَائِمًا بِالْحَاجَةِ إِلَى أَوْلَادٍ . هَلْ كَانَ يَتَسَنَّى لِوَالِدِهَا السَّيِّدِ
لَا مِيتَرِ الْعَيْشِ بِدُونِ أُخْتِهَا بَرِيسِيلا ؟ إِنَّهَا إِذَا مَاتَتْ فَسَوْفَ يَشْعُرُ
غُودْفري بِوَحْدَةٍ قَاتِلَةٍ ! » غَيْرَ أَنَّهَا سَرَّعَانَ مَا تَخَلَّصَتْ مِنْ تِلْكَ
الْخَوَاطِرِ الْكَثِيرَةِ . وَدُهْشَتْ نَانْسِي لِرُؤْيَةِ الْخَادِمَةِ تَدْخُلُ الْحُجْرَةَ حَامِلَةً
صِنِيَّةَ الشَّاي ، فَسَأَلَتْهَا : « هَلْ عَادَ السَّيِّدُ غُودْفري إِلَى الْمَنْزِلِ
يَا جِين ؟ »

« لَا يَا سَيِّدَتِي ، وَلَكِنِّي أَرْجُو أَنْ تَنْظُرِي مِنَ النَّافِذَةِ . إِنَّ النَّاسَ
يَهْرُولُونَ جَمِيعًا فِي هَذَا الْإِتْجَاهِ . أَظُنُّ أَنَّ حَادِثًا قَدْ وَقَعَ . »

قَالَتْ نَانْسِي : « لَا أَعْتَقِدُ ذَلِكَ ، وَلَعَلَّ ثَوْرَ السَّيِّدِ إِسْنَلْ قَدْ هَرَبَ
مَرَّةً أُخْرَى . »

غَيْرَ أَنَّ نَانْسِي لَمْ تَلْبَثْ أَنْ قَلِقَتْ عَلَى زَوْجِهَا ، وَوَدَّتْ لَوْ يَحْضُرُ
فِي الْحَالِ . وَسَرَّعَانَ مَا سَارَتْ نَحْوَ النَّافِذَةِ وَأَطْلَتْ عَلَى الطَّرِيقِ ،
وَهِيَ تَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنَ الْإِضْطِرَابِ .

الفصل الخامس عشر اكتشاف مذهل

تَهَلَّلَ وَجْهُ نَانْسِي حِينَ رَأَتْ زَوْجَهَا قَادِمًا مِنْ بَعِيدٍ ، وَلَكِنَّهُ مَا إِنَّ
دَلَفَ إِلَى الْحُجْرَةِ حَتَّى اسْتَلْقَى مُتَهَالِكًا عَلَى أَحَدِ الْمَقَاعِدِ ، وَوَضَعَ
قُبْعَتَهُ بِيَدٍ مُرْتَعِشَةٍ عَلَى الْمَقْعَدِ الْمُجَاوِرِ . وَبَهَتَتْ نَانْسِي لِرُؤْيَةِ وَجْهِهِ
الشَّاحِبِ وَنَظَرَاتِهِ الْغَرِيبَةِ التَّائِهَةِ ، فَلَمْ تَقْوِ عَلَى الْكَلَامِ ، وَوَضَعَتْ
يَدَهَا عَلَى كَتِفِهِ فِي عَطْفٍ وَحَنَانٍ .

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَالَ فِي أَنْفَاسٍ مُتَقَطَّعَةٍ : « لَقَدْ عُدْتُ بِأَفْصَى مَا
أَسْتَطِيعُ مِنْ سُرْعَةٍ لِأَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يَحْكِي لَكَ الْقِصَّةَ . لَقَدْ صَدِمْتُ
صَدْمَةً فَظِيعَةً لَمَّا وَقَعَ ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِي يَهْمُنِي الْآنَ هُوَ أَنْ تَتَلَقَّيَ
النَّبَأَ فِي هُدُوءٍ ! »

قَالَتْ نَانْسِي ، وَقَدْ شَحَبَ وَجْهُهَا : « هَلْ وَقَعَ لِوَالِدِي أَوْ
لِبَرِيسِيلا مَكْرُوه ؟ »

« لا ، إِنَّهُ دَانِسْتَان - أَخِي دَانِسْتَان الَّذِي اخْتَفَى مُنْذُ سِتَّةَ عَشَرَ
عَامًا . لَقَدْ وَجَدْنَاهُ ، أَعْنِي وَجَدْنَا جُثَّتَهُ ، أَوْ عَلَى الْأَصْحَ عَثَرْنَا عَلَى
عِظَامِهِ فَحَسَبُ ! »

طَمَأْنَتْ تِلْكَ الْكَلِمَاتُ قَلْبَ نَانْسِي ، الَّتِي كَانَ قَدْ تَمَلَّكَهَا
الدُّعْرُ ، فَجَلَسَتْ فِي هُدُوءٍ لِتَسْمَعَ بَقِيَّةَ الْقِصَّةِ . وَارْدَفَ غُودْفَرِي
قَائِلًا : « لَقَدْ هَبَطَ الْمَاءُ إِلَى أَقْصَى حَدٍّ فِي حُقْرَةِ الْمَحْجَرِ الْمَجَاوِرَةِ
لِمَنْزِلِ السَّيِّدِ مَارْتَر ، بِسَبَبِ عَمَلِيَّةِ التَّجْفِيفِ الْجَارِيَةِ فِي الْمَنْطِقَةِ ،
فَكَشَفَ عَنْ بَقَايَا جُثَّةِ أَخِي مُحْشُورَةً بَيْنَ حَجَرَيْنِ كَبِيرَيْنِ . وَهُنَاكَ

وُجِدَتْ سَاعَتُهُ وَمَعَهَا سَوْطِي ذُو الْمِقْبَضِ الذَّهَبِيِّ الَّذِي أَخَذَهُ دُونُ
عِلْمِي ، فِي آخِرِ يَوْمٍ خَرَجَ فِيهِ عَلَى ظَهْرِ جَوَادِي .
وَتَوَقَّفَ غُودْفَرِي هُنَيْهَةً ، إِذْ تَعَثَّرَتِ الْكَلِمَاتُ عَلَى شَفَتَيْهِ .

سَأَلَتْهُ نَانْسِي ، وَقَدْ اعْتَرَتْهَا الدُّهْشَةُ لِانْفِعَالِ زَوْجِهَا الشَّدِيدِ بِمَا
حَدَّثَ لِأَخِيهِ الشَّقِيَّ الْمَكْرُوهِ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ : « أ تَظُنُّ أَنَّهُ أَغْرَقَ
نَفْسَهُ ؟ »

أَجَابَ غُودْفَرِي : « لا ، لَقَدْ سَقَطَ عَلَى الرَّعْمِ مِنْهُ . »



ثُمَّ أَضَافَ بَعْدَ فِتْرَةٍ مِنَ الصَّمْتِ : « إِنَّ دَانِسْتَانَ هُوَ اللَّصُّ الَّذِي سَرَقَ ثَقُودَ سَايْلَاسَ مَارْنَر ! »

وَأَنْخَرَطَتْ نَانْسِي فِي الْبُكَاءِ وَهِيَ تُحَسُّ بِعَمِيقِ الْحُزَنِ وَالرَّثَاءِ لِرُزُوجِهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ بَقِيَ سَاكِناً لَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا . وَانْتَظَرَتْ هِيَ قَلِيلاً ثُمَّ جَالَ بِخَاطِرِهَا أَنَّهُ لَمْ يَفْرُغْ مِمَّا يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ ، فَقَدْ بَقِيَ شَيْءٌ لَا يَزَالُ مُتَرَدِّداً فِي الْإِفْصَاحِ عَنْهُ . وَأَخِيرًا صَعِدَتْ مِنْهُ زَفْرَةٌ عَمِيقَةٌ ثُمَّ قَالَ : « نَانْسِي ! ثَمَّةٌ سِرٌّ دَفِينٌ نَاءٌ بِهِ كَاهِلِي طَوَالَ السَّنَوَاتِ الْمَاضِيَةِ ، وَأُرِيدُ الْبُوحَ بِهِ إِلَيْكَ الْآنَ ؛ حَتَّى أَخَفِّفَ عَنْ نَفْسِي وَأَرْبِحَ ضَمِيرِي الْمَعْدَبَ : كُنْتُ قَبْلَ زَوَاجِي بِكَ ، يَا نَانْسِي ، مُتَزَوِّجًا بِامْرَأَةٍ أُخْرَى زَوَاجًا سَرِيًّا . صَحِيحٌ أَنَّ زَوْجَتِي الْأُولَى قَدْ مَاتَتْ قَبْلَ زَوَاجِي بِكَ ، وَلَكِنْ كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ أَخْبِرَكَ بِذَلِكَ عَلَى آيَةٍ حَالٍ . وَالْآنَ أَرْجُو أَلَّا تَكْرَهِيَنِي أَوْ تَحْتَقِرِيَنِي ، يَا نَانْسِي ، فَلَقَدْ كُنْتُ ضَحِيَّةَ ظُرُوفٍ سَيِّئَةٍ لِلْغَايَةِ فِي ذَلِكَ الزَّوْاجِ . وَلَمْ أَشَأْ أَنْ أَخْبِرَكَ بِهِ فِي حِينِهِ ؛ خَشْيَةً أَنْ يُقَلَّلَ ذَلِكَ مِنْ حُبِّكَ وَاحْتِرَامِكَ لِي ، فَقَدْ كُنْتُ وَمَا زِلْتُ أَحِبُّكَ بِشِدَّةٍ . إِنَّ زَوْجَتِي السَّابِقَةَ هِيَ الَّتِي وَجَدَهَا مَارْنَرُ مَيِّتَةً وَسَطَ الثَّلْجِ ، كَمَا أَنَّ ابْنَتَهَا إِيْسِي هِيَ ابْنَتِي أَنَا ! »

وَتَوَقَّفَ هُنَيْهَةً عَنِ الْكَلَامِ ، وَتَطَلَّعَ إِلَى وَجْهِ نَانْسِي لِيَرَى مَدَى تَأْثِيرِ اعْتِرَافِهِ الْمَذْهِلِ عَلَيْهَا .

وَشَحَبَ وَجْهَ السَّيِّدَةِ الطَّيِّبَةِ مِنْ هَوْلِ الْمَفَاجَأَةِ ، غَيْرَ أَنَّهَا احْتَفَظَتْ بِهُدُوءِهَا وَرِبَاطَةِ جَأَشِهَا ، فَلَمْ تُجِبْ عَلَى الْفُورِ .

وَأَرْدَفَ غُودْفَرِي بِصَوْتٍ مُرْتَعِشٍ : « أَخَشَى مَا أَخْشَاهُ أَنْ تَفْقِدِي الثِّقَةَ بِي يَا نَانْسِي ! كَانَ يَجِبُ أَلَّا أَتْرِكَ الطِّفْلَةَ مَجْهُولَةَ الْأَبِ طَوَالَ هَذِهِ السَّنَوَاتِ ، غَيْرَ أَنَّنِي خَشِيتُ أَنْ أَفْقِدَكَ ، وَلَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَحَمَّلَ فِرَاقَكَ . لَقَدْ تَعَدَّبْتُ عَذَابًا طَوِيلًا مَرِيرًا بِسَبَبِ الْحِمَاقَةِ الَّتِي ارْتَكَبْتُهَا فِي شَبَابِي . »

وَبَقِيَتْ نَانْسِي عَلَى صَمَتِهَا ، وَظَنَّ غُودْفَرِي أَنَّهَا سَوْفَ تَنْهَضُ فِي ثَوْرَةٍ عَارِمَةٍ لِتَهْجُرَهُ إِلَى بَيْتِ أَبِيهَا ، وَلَكِنَّهَا نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ فِي صَوْتٍ هَادئٍ يَشُوبُهُ الْأَلَمُ وَيَخْلُو مِنَ الْغَضَبِ : « لَوْ كُنْتُ قَدْ أَخْبَرْتَنِي بِذَلِكَ يَا غُودْفَرِي مُنْذُ سِتِّ سَنَوَاتٍ ، لَكُنَّا قَدْ قُمْنَا بِوَاجِبِنَا نَحْوَ الْفَتَاةِ . هَلْ تَظُنُّ أَنَّنِي كُنْتُ أَرْفُضُ أَنْ تَعِيشَ مَعَنَا لَوْ عَرَفْتُ أَنَّهَا ابْنَتُكَ !؟ »

تَفَاقَمَ شُعُورُ غُودْفَرِي بِالْإِلْتِمِ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، وَتَرَفَّرَتْ الدُّمُوعُ فِي عَيْنَيْهِ .

وَأَضَافَتْ نَانْسِي قَائِلَةً : « لَوْ كُنَّا قَدْ أَخَذْنَا الطِّفْلَةَ كَمَا كَانَ يَجِبُ أَنْ نَفْعَلَ مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ ، لَكَانَتْ قَدْ أَحْبَبْتَنِي كَأَمِّهَا ،

وَلَا سَتَطَعْتُ أَنْ أَتَحْمَلَ وَفَاةَ طِفْلِي فِي صَبْرٍ أَكْثَرَ ! لَكِنَّكَ حَرَمْتَنَا مِنْ
سَعَادَةٍ كَبِيرَةٍ كَانَتْ فِي مُتَنَاوَلِ أَيْدِينَا !»

وَبَكَتْ نَانْسِي ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ الاستِمْرَارَ فِي الْكَلَامِ ، كَمَا
انْهَمَرَتِ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيِ غُودْفري وَهُوَ يَقُولُ : « لَكِنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ
نَأْخُذَهَا ؛ إِذْ لَا يَهْمُنِي الْآنَ أَنْ يَعْرِفَ كُلُّ النَّاسِ سِرَّ زَوَاجِي
الْأَوَّلِ .»

أَجَابَتْ نَانْسِي ، وَهِيَ تَهْزُ رَأْسَهَا فِي حُزْنٍ : « وَلَكِنَّ الْمَوْقِفَ
يَخْتَلِفُ الْآنَ يَا غُودْفري ، فَقَدْ كَبُرَتِ الْفِتَاءُ وَأَصْبَحَتْ شَابَّةً نَاضِجَةً .
وَيَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُعْلِنَ عَلَى الْفَوْرِ أَنَّ أَبُوهَا الْحَقِيقِيُّ ، وَتَطْلُبُهَا
مِنْ مَارْتِرِ كَيِّ تَتَكَفَّلُ أَنْتَ بِهَا . وَلَسَوْفَ أَقُومُ مِنْ جَانِبِي بِوَاجِبِي
كَامِلًا نَحْوَهَا ، وَأَدْعُو اللَّهَ أَنْ تُجَنِّبَنِي مِثْلَ أُمِّهَا .»

قَالَ غُودْفري فِي حِمَاسَةٍ وَأَنْشِرَاحٍ : « فَلْنَذْهَبْ إِذَا اللَّيْلَةُ مَعًا إِلَى
سَايْلَاسِ مَارْتِرِ .»

الفصل السادس عشر

عرض مرفوض

فِي حَوَالِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ مِنْ مَسَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، كَانَتْ إِيبي
جَالِسَةً مَعَ سَايْلَاسِ مَارْتِرِ فِي الْكُوْخِ . وَكَانَ مَارْتِرُ مُجْهَدًا بِسَبَبِ
الْإِنْفِعَالِ الشَّدِيدِ الَّذِي اعْتَرَاهُ نَتِيجَةُ عَثُورِهِ عَلَى كَنْزِهِ الْمَفْقُودِ ، وَلَكِنَّهُ
كَانَ يَبْدُو سَعِيدًا ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي كُرْسِيِّهِ يَتَطَلَّعُ إِلَى إِيبي الْمُمْسِكَةِ
بِكِلْتَا يَدَيْهِ . وَعَلَى الْمِنْضَدَةِ أَمَامَهُمَا كَانَتْ تَنْتَثِرُ النُّقُودُ الدَّهَبِيَّةُ
وَالْفِضِيَّةُ - مَعْشُوقَةُ سَايْلَاسِ فِي الزَّمَنِ الْغَائِبِ . وَأَخَذَ الرَّجُلُ الْكَهْلُ
يَقْصُ عَلَى إِيبي كَيْفَ كَانَ يَعُدُّ هَذِهِ الْقِطْعَ كُلَّ لَيْلَةٍ ، بِشَغَفٍ وَوَلَهٍ
قَبْلَ أَنْ يَنَامَ ، وَكَيْفَ شَعَرَ بِالتَّعَاسَةِ الشَّدِيدَةِ حِينَ فَقَدَ ذَلِكَ الْمَالَ ،
حَتَّى أَتَتْ هِيَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ فَبَدَّلَتْ عُسْرَهُ يَسْرًا ، وَشَقَاءَهُ نَعِيمًا .

قَالَ سَايْلَاسُ لِإِيبي : « كُنْتُ لَا أَزَالُ أَحْنُ إِلَى الذَّهَبِ وَأَنْتِ فِي
كَنْفِي طِفْلَةٌ صَغِيرَةٌ ، وَأَتَشَوَّقُ إِلَى مُعْجَزَةٍ تُعِيدُنِي إِلَيَّ مَالِي الْمَفْقُودَ .

وَلَكِنْ عِنْدَمَا شَبَّتِ عَنِ الطُّوقِ ، وَغَمَرْتَنِي بِنَظَرَاتِكَ الْحُلُوةِ الْحَانِيَةِ ،
وَمُدَاعِبَاتِكَ الْبَرِيَّةِ الشَّائِقَةِ ، وَلَمَسَاتِ أَصَابِعِكَ الرَّقِيقَةِ الْحَنُونِ ،
صِرْتُ أَنَسَ حَيَاتِي وَبَهْجَةَ رُوحِي ، وَآمَنْتُ بِأَنَّ السَّمَاءَ قَدْ مَنَحْتَنِي
خَيْرَ عَوَظٍ عَنْ كَنْزِي الْمَفْقُودِ . وَإِذَا خَيْرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ كُنُوزِ
الْأَرْضِ كُلِّهَا ، لَاخْتَرْتُكَ أَنْتِ دُونَ مِرَاءٍ . أَنْتِ لَا تَعْرِفِينَ كَمْ
أُحِبُّكَ الْآنَ يَا إِيْسَى !

« بَلْ أَعْرِفُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ يَا أَبِي ، كَمَا أَعْرِفُ أَنَّهُ لَوْلَاكَ لَمَا كَانَ
هُنَاكَ مَنْ يُحِبُّنِي أَوْ يُعْنَى بِالتَّفَكِيرِ فِيَّ . »

قَالَ سَايْلَاسُ : « آه يَا بُنَيْتِي الْحَبِيبَةَ ، لَقَدْ كَانَتْ الْبَرَكَاتُ مِنْ
نَصِيْبِي إِذْ أَخَذْتُكَ ، فَلَوْ لَمْ يُرْسِلْكَ اللَّهُ إِلَيَّ لَكُنْتُ قَدْ مِتُّ مِنْ قُرْطِ
تَعَاسِي ، دُونَ أَنْ أَتَذُوقَ لِلْحَيَاةِ طَعْمًا ، وَلَكِنْ شُكْرًا لِلَّهِ الَّذِي أَحْسَنَ
إِلَيَّ كُلَّ الْإِحْسَانِ ، كَمَا احْتَفَظَ لِي بِالنُّقُودِ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي
أَحْتَاجُهَا فِيهِ لِزَوَاجِكَ . إِنَّهُ ، سُبْحَانَهُ ، وَاسِعُ الرَّحْمَةِ ، جَزِيلُ الْخَيْرِ
وَالْعَطَاءِ ! »

وَسَمِعَ قَرَعَ عَلَى الْبَابِ ، فَقَامَتْ إِيْسَى لِتُجِيبَ الطَّارِقَ ، وَمَا إِنَّ
رَأَتْ السَّيِّدَ غُودْفِرِي وَزَوْجَتَهُ حَتَّى تَهَلَّلَ وَجْهَهَا وَحَيْثُمَا فِي رَقَّةٍ
وَأَنْشِرَاحٍ .

قَالَتْ نَانْسِي وَهِيَ تَأْخُذُ يَدَ إِيْسَى فِي يَدِهَا ، وَتَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا فِي
اهْتِمَامٍ : « أَخْشَى أَنْ يُزَعِّجَكُمَا حُضُورُنَا فِي هَذَا الْوَقْتِ الْمُتَأَخِّرِ ! »

أَجَابَ سَايْلَاسُ وَهُوَ يَنْهَضُ مَرَحَبًا : « لَا ، إِطْلَاقًا ! »

وَجَلَسَ غُودْفِرِي وَزَوْجَتُهُ فِي مَقْعَدَيْنِ مُتَجَاوِرَيْنِ . وَوَقَفَتْ إِيْسَى
إِلَى جَانِبِ سَايْلَاسُ فِي مُوَاجَهَتِهِمَا ، وَكَانَتْ تَبْدُو جَمِيلَةً رَائِعَةً
لِلْغَايَةِ .

قَالَ غُودْفِرِي وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي ثَبَاتٍ : « حَسَنٌ يَا سَيِّدُ
مَارْنَرُ ، لَقَدْ اغْتَبَطْتُ كَثِيرًا لِاسْتِعَادَتِكَ نُقُودَكَ الْمَسْرُوقَةَ ، كَمَا أَلْمَنِي
جَدًّا أَنْ يَكُونَ السَّارِقُ هُوَ شَقِيقِي الْمَرْحُومِ دَانِسْتَانِ . إِنَّنِي أَشْعُرُ تَمَامًا
بِأَنَّهُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيَّ تَعْوِضُكَ عَمَّا لَحِقَ بِكَ مِنْ أَلَمٍ وَأَذَى .
وَمَهْمَا قَدَّمْتُ لَكَ ، فَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ سِوَى رَدٍّ لِمَا أَدِينُ بِهِ لَكَ فِي
هَذَا الْحَادِثِ ، وَفِي أَشْيَاءَ أُخْرَى كَذَلِكَ . »

وَتَوَقَّفَ غُودْفِرِي عَنِ الْكَلَامِ ؛ إِذْ كَانَ قَدْ اتَّفَقَ مَعَ نَانْسَى عَلَى
أَلَّا يُفَاجِئَا الْكَهْلَ وَقَتَانَهُ بِمَا جَاءَا لِأَجْلِهِ مِنْ شَأْنٍ ، وَأَنْ يَطْرُقَا
الْمَوْضُوعَ بِرَفْقٍ وَتَدْرِيجٍ .

إِلَّا أَنَّ سَايْلَاسَ شَعَرَ بِضَيْقٍ وَانْقِبَاضٍ مُبَاغِتَيْنِ ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَالَ :

« إِنِّي أَنْتَهَزُ هَذِهِ الْفُرْصَةَ لِشُكْرِكَ ، يَا سَيِّدِي ، عَلَى الْخِدْمَاتِ
الكثيرة التي قَدَّمْتَهَا لِي فِي الْمَاضِي ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنَّهُ لَا ذَنْبَ لَكَ
شَخْصِيًّا فِي حَادِثِ السَّرِقَةِ ! »

« أَنْتَ تَنْظُرُ إِلَى الْأَمْرِ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِكَ الْخَاصَّةِ يَا سَيِّدَ مَارْنَر ،
وَلَكِنْ أَرْجُو أَنْ تَدْعَنِي أَفْعَلُ مَا أَرَاهُ صَوَابًا كَمَا أَرِيحَ ضَمِيرِي . لَقَدْ
تَقَدَّمْتُ بِكَ السَّن ، وَأَصْبَحَ النَّسْجُ حِرْفَةً شَاقَّةً لَا تُنَاسِبُ شَيْخًا
مَكْدُودًا مِثْلَكَ . »

« إِنَّ سِنِّي لَمْ تَتَعَدَّ بَعْدَ الْخَامِسَةِ وَالْخَمْسِينَ ، وَذَلِكَ فِي حُدُودِ
مَا أَعْرِفُ ، يَا سَيِّدِي . »

« حَسَنٌ ، قَدْ يَمْتَدُّ بِكَ الْأَجَلُ ثَلَاثِينَ عَامًا أُخْرَى أَوْ يَزِيدُ . وَهَذَا
الْمَالُ الَّذِي أَرَاهُ أَمَامِي عَلَى الْمِنْضَدَةِ مَالٌ قَلِيلٌ لَا يَسُدُّ حَاجَتَكَ
الشَّخْصِيَّةَ هَذَا الرَّدْحَ الطَّوِيلَ مِنَ الزَّمَنِ ، فَمَا بِالْكَ وَأَنْتَ تَعُولُ نَفْسًا
أُخْرَى ؟ »

أَجَابَ مَارْنَرُ : « إِنِّي لَا أَخْشَى الْحَاجَةَ يَا سَيِّدِي ، فَإِنِّي قَوِيٌّ
الثِّقَةُ بِاللَّهِ ، كَمَا أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ - إِيَّيَ وَأَنَا - أَنْ نُدَبِّرَ أَمْرَنَا بِسَهُولَةٍ .
إِنَّ مُعْظَمَ الْعُمَالِ فِي الْقَرْيَةِ لَا يَدْخِرُونَ مَبْلَغًا كَهَذَا . إِنَّهُ مَبْلَغٌ ضَعِيفٌ

بِالنِّسْبَةِ لَكَ ، وَلَكِنَّهُ كَبِيرٌ بِالنِّسْبَةِ لِمِثَالِنَا مِنَ الْقَوْمِ الْبُسْطَاءِ ، فَحَنُ
لَا نَطْمَحُ فِي الْحَيَاةِ إِلَى أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ . »

قَالَتْ إِيَّيَ : « نُرِيدُ الْحَدِيقَةَ فَقَطْ ، يَا أَبِي . وَاحْمَرَّ وَجْهَهَا
خَجَلًا . »

قَالَتْ نَانْسِي ، مُحَاوِلَةً أَنْ تُسَاعِدَ زَوْجَهَا بِكَلِمَاتٍ مُنَاسِبَةٍ
لِلْمَوْقِفِ : « هَلْ تُحِبُّينَ الْحَدَائِقَ يَا عَزِيزَتِي ؟ إِذَا فَحَنُ مُتَّفِقَتَانِ فِي
هَذَا الْحُبِّ . إِنِّي أُعْطِي الْكَثِيرَ مِنْ وَقْتِي لِحَدِيقَةِ بَيْتِنَا . »

وَصَمَتَ غُودْفري لِحِظَةٍ ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ لِمَارْنَرِ قَائِلًا : « لَقَدْ
قُمْتُ بِوَاجِبِكَ كَامِلًا نَحْوَ إِيَّيَ طَوَالَ سِتَّةَ عَشَرَ عَامًا . وَأُظُنُّ أَنَّهُ
يُسْعِدُكَ الْآنَ أَنْ تَرَاهَا وَقَدْ كُفِّلَ مُسْتَقْبَلُهَا جَيِّدًا مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَادِيَّةِ .
إِنَّهَا شَابَةٌ نَاضِجَةٌ وَفِي صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ ، غَيْرَ أَنَّ الْعَمَلَ الشَّاقَّ لَا يُنَاسِبُهَا ،
فَهِيَ لَا تَبْدُو خَشَنَةً كَبَنَاتِ الطَّبَقَةِ الْعَامِلَةِ . أَلَا يَسُرُّكَ يَا مَارْنَرُ أَنْ
يَتَوَلَّى أَمْرَهَا أَنْاسٌ أَغْنِيَاءُ ، يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَتْرَكُوا لَهَا ثَرَوَةً كَبِيرَةً بَعْدَ
وَفَاتِهِمْ ، وَأَنْ يَجْعَلُوا مِنْهَا سَيِّدَةً مِنْ سَيِّدَاتِ الطَّبَقَةِ الرَّاقِيَةِ ؟ »

شَعَرَ سَايْلَاسُ بِطَعْنَةِ بِالْغَةِ أَصَابَتْ كِبْرِيَاءَهُ ، أَمَا إِيَّيَ فَقَدْ عَجِبَتْ
مِنْ حَدِيثِ غُودْفري ، وَلَمْ تَدْرِ لَهُ كُنْهًا .

قَالَ سَايْلَاسُ ، وَقَدْ تَمَلَّكَتْهُ الدَّهْشَةُ : « لَسْتُ أَفْهَمُ مَا تَعْنِيهِ ،

يا سيدي .»

أعني يا سيد مارتر أن زوجتي وأنا نريد أن نتخذ من إبي ابنة لنا ؛
إذ إنه ليس لنا أولاد كما تعلم ، وسوف نمنحها جميع حقوق الابنة
الشرعية ، وسوف ترث بيتنا الكبير وسائر ممتلكاتنا من بعدنا . أظن
أنه يسرك أن تراها في بحبوحة من العيش ، وأن تطمئن على
مستقبلها ، بعد أن كافحت في سبيلها هذه السنوات الطوال .
وسوف تنال جزاءك العادل على هذا الكفاح النبيل . إن إبي لن
تنسى لك صنيعك دون شك ، سوف تجبك إلى المنتهى وتحضر
لرؤيتك كما تحضر أنت أيضاً لرؤيتها بين الحين والآخر ، بالإضافة
إلى أنني سوف أفعل كل ما في وسعي لتأمين مستقبلك للفترة
المتبقية من حياتك .»

وبينما كان غودفري ينطق بالكلمات في صعوبة وتوتر ، كانت
إبي تضع يدها على كتف سايلاس في حنان بالغ . وأحست
بجسده يرتعش ، فأحاطت عنقه بذراعيها وكأنها تشجعه وتحميه .

وصمت سايلاس هنيهة ، ثم التفت إلى ابنته قائلاً : « إبي
يا ابنتي ، تكلمي أنت . تقدمي بالشكر للسيد غودفري كاس
وزوجته على هذا المعروف الجديد . أنا لن أقف في طريق سعادتك



بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ !

تَقَدَّمَتِ الْفَتَاةُ إِلَى الْأَمَامِ ، وَقَالَتْ فِي ثَبَاتٍ وَإِصْرَارٍ : « أَشْكُرُكَ يَا سَيِّدِي . إِنِّي لَنْ أَتَخَلَّى عَنْ أَبِي سَائِيلاسِ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ، كَمَا أَنِّي لَا أَرْغَبُ فِي أَنْ أَكُونَ مِنْ سَيِّدَاتِ الْمُجْتَمَعِ الرَّاقِي . »

وَارْتَعَشَتْ شَفَتَاهَا مِنَ الْخَجَلِ وَالْإِنْفِعَالِ . وَسَرَعَانَ مَا تَرَاوَعَتْ إِلَى مَقْعَدِ سَائِيلاسِ الَّذِي أَمْسَكَ بِيَدِهَا كَيْ يَحُولَ دُونَ تَعَثُّرِهَا مِنْ قَرَطِ الْإِرْتِيَاكِ .

غَضِبَ غودفري مِنْ رَدِّ الْفَتَاةِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُهُ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ صَاحَ قَائِلًا : « وَلَكِنْ لِي حَقًّا عَلَيْكَ يَا إِيبِي ، هُوَ أَقْوَى الْحَقُوقِ قَاطِبَةً ! إِنَّكَ ابْنَتِي أَنَا لَا ابْنَتُهُ مَارْنَرُ ، وَأَمَّا كَأَنَّ زَوْجَتِي ، وَمِنْ وَاجِبِي الْآنَ أَنْ أَخَذَكَ لِأَتَكَفَّلَ بِكَ وَأَدْبِرَ أَمْرَ مُسْتَقْبَلِكَ . »

صَاحَ سَائِيلاسُ فِي مَرَارَةٍ : « أَتَيْنَ كُنْتُ مِنْذُ سِتَّةِ عَشَرَ عَامًا يَا سَيِّدِي ؟! لِمَاذَا لَمْ تُصْرَحْ بِالْأَمْرِ فِي حِينِهِ ، وَلِمَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَأْخُذَ الْفَتَاةَ الْآنَ بَعْدَ أَنْ تَعَلَّقْتُ بِهَا ، وَتَعَوَّدْتُ الْحَيَاةَ مَعَهَا ، وَأَصْبَحْتُ لَا أَطِيقُ الْعَيْشَ بِدُونِهَا ؟ إِنَّهَا مِنِّي بِمِثَابَةِ الْقَلْبِ مِنَ الْجَسَدِ . إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَرْسَلَهَا إِلَيَّ لِأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ رَاجِيًا فِيهَا . إِنَّهَا ابْنَتِي الْآنَ أَمَامَ اللَّهِ وَالنَّاسِ ، وَلَيْسَ لَكَ أَيُّ حَقٍّ عَلَيْهَا . عِنْدَمَا يَطْرُدُ الْإِنْسَانُ النِّعْمَةَ عَنْ

بَابِهِ ، فَإِنَّهَا تَذْهَبُ إِلَى آخَرِينَ مِمَّنْ يُدْخِلُونَهَا إِلَى بُيُوتِهِمْ بِفَرَحٍ وَتَرَحُّابٍ . »

أَجَابَ غودفري : « أَعْرِفُ هَذَا يَا مَارْنَرُ ، وَأَقْرُبُ بِذَنْبِي أَمَامَ اللَّهِ وَالنَّاسِ . »

قَالَ مَارْنَرُ : « وَلَكِنَّ هَذَا لَمْ يُغَيِّرْ شَيْئًا عَلَى مَدَى السِّتَّةِ عَشَرَ عَامًا الْمَاضِيَةَ . إِنَّهُ رَدَحَ طَوِيلٌ مِنَ الزَّمَنِ . إِنِّي الشَّخْصُ الْوَحِيدُ الَّذِي كَانَتْ تُنَادِيهِ بِكَلِمَةِ أَبِي طَوَالَ هَذِهِ السَّنَوَاتِ ! »

قَالَ غودفري : « وَلَكِنِّي أَوْكَّدُ لَكَ أَنَّهَا سَتَكُونُ قَرِيبَةً مِنْكَ عَلَى الدَّوَامِ . سَوْفَ نَدْعُهَا تَأْتِي كَثِيرًا لِتَرَكَ . كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ حُبَّكَ الصَّادِقَ لِلْفَتَاةِ سَوْفَ يَجْعَلُكَ سَعِيدًا وَمُرَحَّبًا بِهَذَا الْحِطِّ الطَّيِّبِ الَّذِي يَطْرُقُ بِأَبِهَا ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ابْتِثَاسِكَ لِفِرَاقِهَا . وَتَذَكَّرُ أَنَّهَا إِذَا بَقِيَتْ فِي كَنَفِكَ ، فَسَوْفَ تَتَزَوَّجُ عَلَى الْأَرْجَحِ شَابًا مُتَوَاضِعَ الْمَكَانَةِ مِنَ الطَّبَقَةِ الْعَامِلَةِ ، وَحِينَئِذٍ لَنْ أَسْتَطِيعَ أَنْ أَهْبِهَا شَيْئًا مِنْ ثُرَوَتِي . »

كَانَتْ إِيبِي تُنْصِتُ جَيِّدًا ، لِلْحِوَارِ الَّذِي يَدُورُ بَيْنَ وَالِدِهَا الشَّيْخِ وَذَلِكَ الْوَالِدِ الْجَدِيدِ ، الَّذِي ظَهَرَ فَجْأَةً فِي أَفْقِ حَيَاتِهَا ، وَالَّذِي وَضَعَ خَاتَمَ الزَّوْاجِ يَوْمًا مَا فِي إَصْبَعِ أُمِّهَا . وَلَقَدْ شَعَرَتْ الْفَتَاةُ بِالْمَقْتِ وَالْإِزْدِرَاءِ لِهَذَا الْوَالِدِ الْجَدِيدِ ، وَلِأَمْوَالِهِ الطَّائِلَةِ . أَمَّا سَائِيلاسُ

فَقَدْ خَشِيَ ، رَغَمَ تَعَلُّقِهِ الشَّدِيدِ بِالْفَتَاةِ ، أَنْ يَقِفَ عَقَبَةً فِي سَبِيلِ
سَعَادَتِهَا وَهَنَاءِهَا ؛ لِذَلِكَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَالَ : « لَا جَدِيدَ عِنْدِي
أَضِيفُهُ يَا سَيِّدُ غَوْدُفْرِي ، سِوَى أَنْ تَسْأَلَ إِيَّيَ رَأْيِهَا فِي الْأَمْرِ ، فَإِنْ
رَغِبْتَ فِي الذَّهَابِ مَعَكُمْ فَلَنْ أَقِفَ فِي طَرِيقِهَا . »

التَفَتَ غَوْدُفْرِي إِلَى ابْنَتِهِ الشَّابَّةِ ، وَقَالَ لَهَا فِي خَجَلٍ وَارْتِبَاكِ :
« إِيَّيَ يَا عَزِيزَتِي ، نَحْنُ نُرِيدُ أَنْ تُظْهِرِي كُلَّ الْحُبِّ وَالْعِرْفَانِ
بِالْجَمِيلِ لِهَذَا الرَّجُلِ الْكَرِيمِ الَّذِي كَانَ أَبَا حَنُونًا لَكَ طَوَالَ هَذِهِ
السَّنَوَاتِ . وَلَكِنِّي أَرْجُو أَنْ تُجِيبِي كَذَلِكَ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنِّي
لَمْ أَقُمْ بِوَأَجِبِي الْأَبَوِي نَحْوَكَ فِي الْمَاضِي . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعُوْضَكَ
عَنْ ذَلِكَ فِيمَا تَبَقَّى لِي مِنْ عُمْرٍ ، وَلَسَوْفَ تَجِدِينَ فِي زَوْجَتِي خَيْرَ
أُمِّ لَكَ . »

قَالَتْ نَانْسِي فِي طَبِيعَةٍ وَحَنَانٍ : « سَوْفَ تَكْتَمِلُ سَعَادَتُنَا ،
يَا عَزِيزَتِي ، حِينَ يَلْتَمِسُ شَمْلُنَا تَحْتَ سَقْفٍ وَاحِدٍ ، أَنْتِ وَغَوْدُفْرِي
وَأَنَا . وَحَيَاتُنَا لَنْ تَكْتَمِلَ إِلَّا بِوُجُودِكَ مَعَنَا ابْنَةُ عَزِيزَةٍ مُكْرَمَةٍ ! »

ظَلَّتْ إِيَّيَ فِي مَكَانِهَا تُمَسِّكُ بِيَدِ سَايْلَاسٍ فِي حَنَانٍ بِالِغِ ،
وَأَجَابَتْ قَائِلَةً فِي حَزْمٍ وَتَأَكِيدٍ : « أَشْكُرُكُمْ كَثِيرًا عَلَى عَرْضِكُمَا
الْكَرِيمِ ، فَهُوَ أَعْظَمُ مِمَّا كُنْتُ أَفَكِّرُ فِيهِ أَوْ أَطْمَحُ إِلَيْهِ . غَيْرَ أَنِّي لَنْ

أَشْعُرَ بِأَيِّ سَعَادَةٍ بَعِيدًا عَنْ أَبِي سَايْلَاسٍ ، وَلَنْ أَتْرُكَهُ يَشْعُرُ بِالْوَحْدَةِ
الْمُرِيرَةِ لِقَاءِ أَيِّ ثَمَنٍ . لَقَدْ أَحْبَبَنِي وَرَعَانِي مِنْذُ أَنْ كُنْتُ طِفْلَةً تَحْبُو ،
وَسَوْفَ أَبْقَى مَعَهُ إِلَى أَنْ يَحِينَ أَجَلُهُ أَوْ يَحِينَ أَجَلِي . لَنْ يَفْصِلُنَا
سِوَى الْمَوْتِ ! » ثُمَّ أَجْهَشَتْ بِالْبُكَاءِ .

قَالَ سَايْلَاسُ لِإِيَّيَ فِي تَأَثُّرٍ شَدِيدٍ : « وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ تَتَأَكَّدِي
أَوَّلًا مِنْ حَقِيقَةِ مَشَاعِرِكَ يَا بُنَيَّتِي . يَجِبُ أَنْ تَتَأَكَّدِي مِنْ أَنَّكَ لَنْ
تَأْسَفِي يَوْمًا مَا عَلَى هَذَا الْقَرَارِ ، تَذَكَّرِي أَنَّكَ سَتَعِيشِينَ بَيْنَ قَوْمٍ
فُقَرَاءَ ، وَتَرْتَدِينَ مَلَابِيسَ رَخِيصَةٍ ، وَتَسْكُنِينَ مَنْزِلًا صَغِيرًا مُتَوَاضِعًا ،
عَلَى حِينٍ أَنْ الْفُرْصَةَ قَدْ سَنَحَتْ لَكَ لِتُبَدِّلِي بِكُلِّ ذَلِكَ حَيَاةً أَكْثَرَ
رَاحَةً وَمَتَاعًا وَأَمَانًا . »

أَجَابَتْ إِيَّيَ : « لَنْ آسَفَ يَوْمًا لِأَنِّي تَخَلَّيْتُ عَنِ الثَّرَاءِ وَالْمَتَاعِ
الكَاذِبَةِ ، وَلَكِنِّي يَا أَبِي سَوْفَ أَعِيشُ مُنْغَصَّةً طَوَالَ حَيَاتِي ، إِنْ أَنَا
تَنَكَّرْتُ لَكَ أَوْ تَخَلَّيْتُ عَنْكَ . أَنَا لَمْ أَعْتَدْ حَيَاةَ التَّرَفِ الَّتِي يَتَحَدَّثُ
عَنْهَا السَّيِّدُ غَوْدُفْرِي ، وَلَا أَوَدُّ أَنْ أَعِيشَ فِي ظِلَالِ هَذَا التَّرَفِ . »

وَتَطَلَّعَتْ نَانْسِي إِلَى زَوْجِهَا الَّذِي كَانَ خَافِضًا بَصَرَهُ إِلَى الْأَرْضِ ،
وَقَالَتْ لِإِيَّيَ : « حَقًّا مَا قُلْتِهِ يَا ابْنَتِي الْعَزِيزَةُ ، وَلَكِنْ يَبْقَى هُنَاكَ
وَاجِبٌ عَلَيْكَ نَحْوُ أَيْلِكَ الشَّرْعِيِّ ؛ عِنْدَمَا يَفْتَحُ هَذَا الْأَبُ بَابَهُ ، فَلَا

قَالَتْ نَانْسِي لِمُضَيَّفَيْهِمَا وَهِيَ تَنْهَضُ : « سَوْفَ نَزُورُكُمَا مَرَاتٍ
 أُخْرَى كَثِيرَةً ، وَلَكِنْ نَتَحَدَّثُ ثَانِيَةً فِي هَذَا الْأَمْرِ . طَابَ مَسَاؤُكُمَا .
 وَأَمْسَكْتُ بِذِرَاعِ زَوْجِهَا الَّذِي كَانَ حَزِينًا كَسِيفَ الْبَالِ ، وَغَادَرَا
 الْكُوخَ .



يَجْمَلُ بِكَ أَنْ تُدِيرِي لَهُ ظَهْرَكَ .

أَجَابَتِ الْفَتَاةُ وَقَدْ تَجَمَّعَتِ الدُّمُوعُ فِي عَيْنَيْهَا : « أَنَا لَا أَعْرِفُ
 لِي أَبَا سِوَى أَبِي سَائِلَاسَ . إِنَّهُ لَمْ يُعِدَّنِي لَكِي أَصْبَحَ سَيِّدَةً مِنْ
 سَيِّدَاتِ الْمَجْتَمَعِ الْغَنِيِّ الْأَرِسْتَقْرَاطِيِّ ، وَلَا أَوَدُّ أَنْ أَكُونَ كَذَلِكَ يَوْمًا
 مَا . إِنِّي أَحِبُّ الْعَامِلِينَ الْبُسْطَاءَ ، وَأَحِبُّ مَنَازِلَهُمْ وَأَسْلُوبَهُمْ فِي
 الْحَيَاةِ . لَقَدْ وَعَدْتُ أَحَدَ الْعُمَّالِ الزَّرَاعِيِّينَ بِالزَّوْاجِ ، وَسَوْفَ يَعِيشُ
 هَذَا الزَّوْجُ مَعَ أَبِي مَارْتِنِ ، وَيُسَاعِدُنِي فِي الْعِنَايَةِ بِهِ .

وَنَظَرَ غُودْفري إِلَى زَوْجَتِهِ فِي يَأْسٍ قَائِلًا : « هَيَّا بِنَا لِنَعُودَ ! »

اخاتمة

كَانَ أَهَالِي رَافِيلُو يَتَّخِذُونَ مِنْ فَصْلِ الرَّبِّيعِ مَوْسِمًا لِلزَّوْاجِ ، فَهَمُّ
يَعْتَبِرُونَهُ أَنْسَبَ الْأَوْقَاتِ لِذَلِكَ . وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الَّذِي زُفْتُ فِيهِ
إِيسَى إِلَى عَرِسِهَا آرون ، سَطَعَتْ شَمْسُ الرَّبِّيعِ فِي دِفءٍ حَنِ
خَفِيفٍ ، وَانْتَشَرَ عَبَقُ الْوُرُودِ وَالْأَزَاهِيرِ فِي الْحَدَائِقِ وَالْحُقُولِ . وَبَدَتْ
إِيسَى فِي ثَوْبِ زَفَافِهَا الْأَبْيَضِ الْأَنِيقِ بِالْغَةِ السَّحْرِ وَالْجَازِبِيَّةِ ، وَكَانَ
ذَلِكَ الثَّوْبُ الرَّائِعُ الرَّقِيقُ هُوَ هَدِيَّةُ نَانَسِي زَوْجَةِ غُودْفَرِي لَهَا فِي تِلْكَ
الْمُنَاسَبَةِ السَّعِيدَةِ .

قَالَتْ إِيسَى لِسَائِلَاسَ : « لَنْ تَتَخَلَّى عَنِّي أَبَدًا يَا أَبِي ، وَسَتَتَّخِذُ
مِنْ آرونَ أَيْضًا ابْنًا لَكَ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

أَجَابَ سَائِلَاسَ ، وَالْفَرَحَةُ تَتَرَاقَصُ فِي عَيْنَيْهِ : « بِالتَّأَكِيدِ ،
يَا ابْنَتِي الْحَبِيبَةَ . »

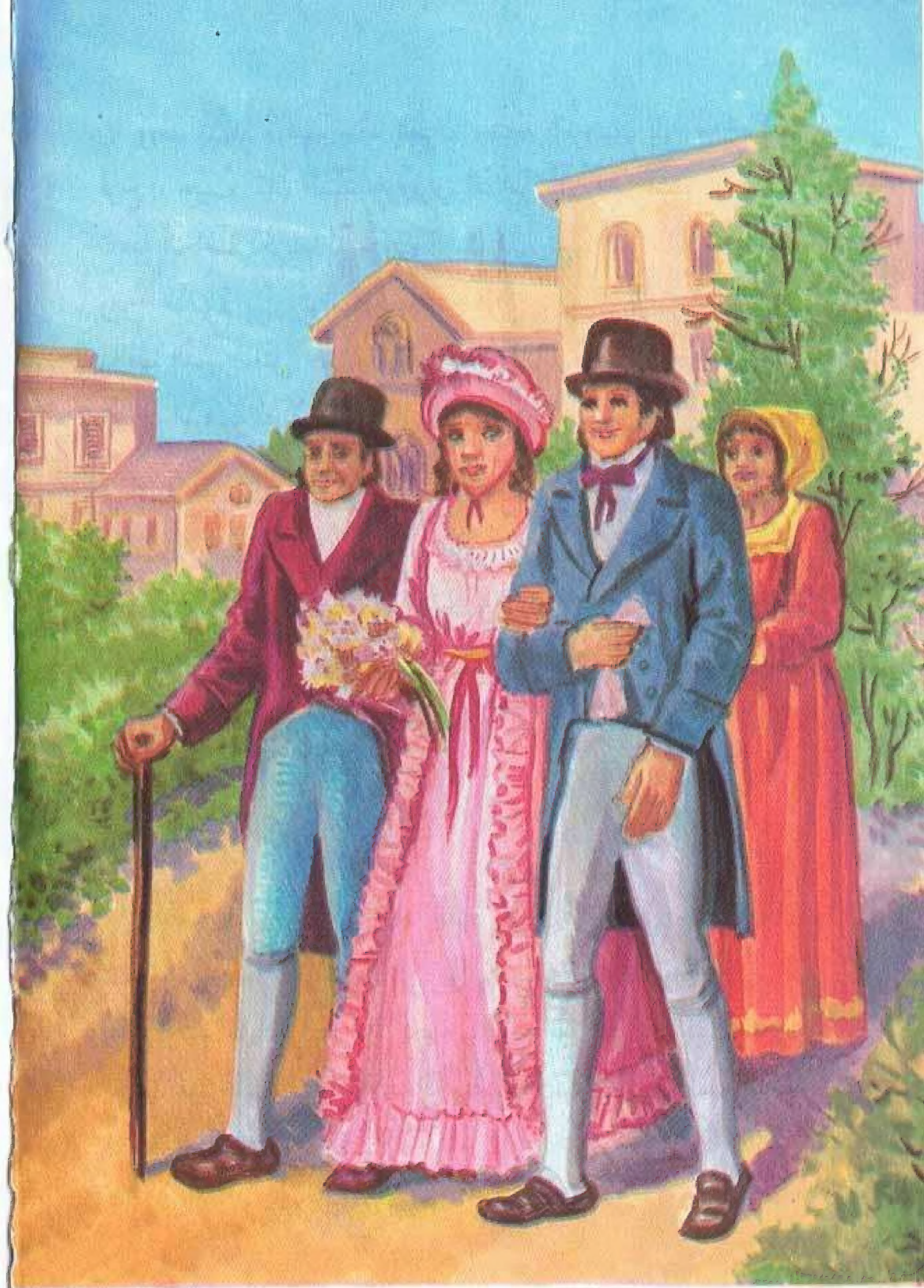
وَبَعْدَ انْتِهَاءِ مَرَّاسِمِ عَقْدِ الْقِرَانِ ، اتَّجَهَ الْعَرُوسَانِ إِلَى فُنْدُقِ قَوْسَ
قُزَحَ ، حَيْثُ كَانَ السَّيِّدُ غُودْفَرِي قَدْ أَمَرَ بِأَنْ يُقَامَ عَشَاءٌ فَاخِرٌ عَلَى
نَفَقَتِهِ الْخَاصَّةِ تَكْرِيمًا لَهُمَا . وَكَانَتْ إِيسَى تَسِيرُ بَيْنَ سَائِلَاسَ وَآرونَ ،
وَمِنْ خَلْفِهِمْ بَنُ وَنَثْرُوبُ وَزَوْجَتُهُ دُولِي . وَبَدَتْ الْعَرُوسُ فِي ثَوْبِ
زَفَافِهَا الثَّمِينِ مِثْلَ حُورِيَّةٍ سَاحِرَةٍ ، أَوْ مَلَائِكَةٍ أَبْيَضَ يَتَوَجَّهُ شَعْرُ يَشْبَهُ
خَيْوَطَ الذَّهَبِ الصَّفْرَاءِ .

وَسَارَ الْمُوكِبُ الصَّغِيرُ الْبَدِيعُ بَيْنَ جُمُوعِ الْمُشَاهِدِينَ ، الَّذِينَ
تَمَلَّكَهُمُ السُّرُورُ وَالْإِعْجَابُ ، غَيْرَ أَنَّ غُودْفَرِي لَمْ يُشَارِكْ سَائِرَ
الْمَدْعُوعِينَ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ هَذَا الْإِحْتِفَالِ ؛ إِذْ كَانَ قَدْ غَادَرَ الْقَرْيَةَ فِي
صَبَاحِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، مُتَعَلِّلًا بِإِنْجَازِ بَعْضِ الْأَعْمَالِ الْهَامَّةِ . وَكَانَ أَهْلُ
الْقَرْيَةِ يَرَوْنَ فِي إِكْرَامِ السَّيِّدِ غُودْفَرِي لِلنِّسَاجِ أَمْرًا طَبِيعِيًّا لِتَعْوِضِهِ
عَمَّا لَحِقَ بِهِ مِنْ أَذَى عَلَى يَدِ شَقِيقِهِ دَانِسْتَانَ ، وَقَدْ أَسَفُوا لِتَغْيِيهِ عَنْ
حَفْلِهِمُ الْبَهِيحِ .

وَتَجَمَّعَ الْمَدْعُوعُونَ فِي فِنَاءِ فُنْدُقِ قَوْسَ قُزَحَ قَبْلَ مَوْعِدِ الْعَشَاءِ
بِسَاعَةٍ ، وَأَخَذُوا يُثَرِّثُونَ مَعًا فِي مَرَحٍ وَحُبُورٍ . وَاسْتَعَادُوا فِي سَمَرِهِمْ
وَقَائِعَ حَيَاةِ سَائِلَاسَ مَارُنَرَ الْعَجِيبَةِ ، وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ
الطَّيِّبَ قَدْ جَلَبَ الْبَرَكَاتِ وَالسَّعَادَةَ لِنَفْسِهِ ؛ بِتَبْنِيهِ تِلْكَ الطُّفْلَةَ الْيَتِيمَةَ
الَّتِي فَقَدَتْ وَالِدَيْهَا .

وَلَمَّا اقْتَرَبَ مَوْكِبُ الْعُرُوسَيْنِ ، هَتَفَ لَهُمَا الْحَاضِرُونَ هَتَافًا
صَاحِبًا بِهَيْجًا ، ثُمَّ تَقَدَّمَ الْعُرُوسَانِ الْمَدْعُوعَيْنِ إِلَى مَائِدَةِ الْعِشَاءِ الْحَافِلَةِ
الَّتِي أُقِيمَتْ فِي بَهْوِ الْفُنْدُقِ .

وَبَيْنَمَا كَانَ الْعُرُوسَانِ يَسِيرَانِ إِلَى بَيْتِهِمَا الصَّغِيرِ الْهَادِي ، الْقَائِمِ
إِلَى جِوَارِ الْمَحْجَرِ الْعَتِيدِ ، طَالَعَتْهُمَا عَنْ بُعْدٍ حَدِيقَتُهُ الْجَمِيلَةُ الْيَانِعَةُ ،
وَهَبَّتْ عَلَيْهِمَا نَسَمَاتُ الرِّبْعِ الْحُلُوءِ الْمَعْطَرَةُ بِأَرْبَعِ الْوَرْدِ وَالْفُلِّ
وَالْيَاسْمِينِ . وَكَانَتْ عِدَّةُ تَحْسِينَاتٍ قَدْ أَدْخِلَتْ عَلَى الْمَنْزِلِ عَلَى
نَفَقَةِ السَّيِّدِ غُودْفَرِي ، كَيَّ يُلَاقِمُ عَائِلَةً سَايِلَاسَ الْجَدِيدَةَ . وَمَا إِنْ
اقْتَرَبُوا مِنَ الْبَيْتِ حَتَّى صَاحَتْ إِيَّيْ فِي جَذَلٍ وَسُرُورٍ : « يَا لَهُ مِنْ
مَنْزِلٍ بَدِيعٍ ! لَا أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا أَسْعَدُ مِنَّا حَالًا ، يَا أَبِي ! »



الروايات المشهورة

- | | |
|---------------------------|----------------------|
| ١ - جين إير | ٨ - كونت مونت كريستو |
| ٢ - فرانكنشتاين | ٩ - الرجل الخفي |
| ٣ - مونفليت | ١٠ - الزمن العصيب |
| ٤ - دراكولا | ١١ - الزنبقة السوداء |
| ٥ - لورنا دون | ١٢ - الأمير و الفقير |
| ٦ - دكتور جيكل ومستر هايد | ١٣ - سايلاس مارنر |
| ٧ - شي الملكة الأسطورة | ١٤ - الوادي الغاضب |



مَكْتَبَةُ لَبْنَان

سَاحَةُ رِيَّاضِ الصَّلَح - بَیروت

01 C 198114

رقم الكمبيوتر